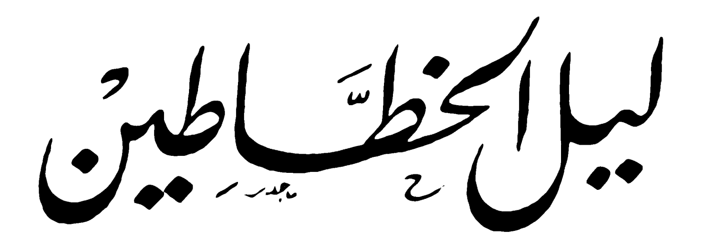
ياسمين غاتا







ليل الخطاطين



ياسمين غاتا



رواية

نقلها عن الفرنسية

جبّور الدويهي



صدرت هذه الرواية بالفرنسية

تحت عنوان

La nuit des calligraphes

de Yasmine Ghata

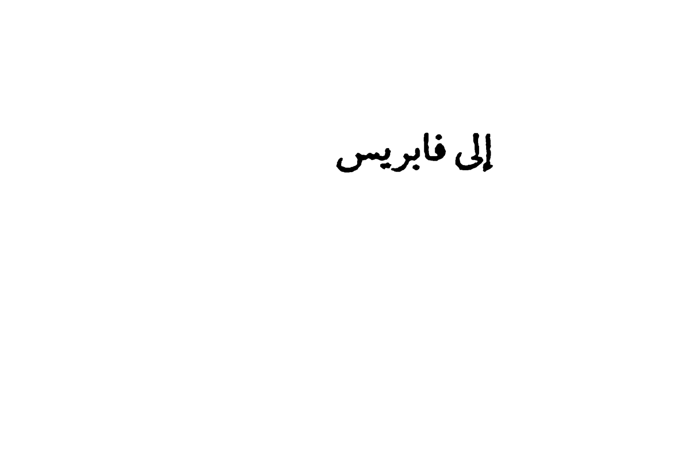
Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme Georges Schehadé
d'aide à la publication,
bénéficie du soutien du Ministère des Affaires étrangères
et du Service de Coopération et d'Action culturelle
de l'Ambassade de France au Liban

يصدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية في لبنان
- قسم التعاون والعمل الثقافي - وذلك في اطار برنامج جورج شحاده للمساعدة على النشر

الطبعة الأولى، تشرين الأول 2006

ص. ب 226-11، بيروت، لبنان
فاكس 961-1-561693
darannahar@darannahar.Com

ISBN 9953-74-120-4



إلى فابريس

انطفأتُ في 26 نيسان 1986 عن ثلاثة وثمانين عاماً. كانت اسطنبول تحتفل بعيد الزنبق في اميرجان. صبيحة اليوم نفسه، أبلغ ابني نديم وفاتي الى الدوائر البلدية في بكلربكي، القرية الساحلية المتربّعة على الضفة الآسيوية للبوسفور. كان رحيلي بلا مشاكل، كما كانت عليه حياتي. لم أخَف الموت مرة، فهو لا يقسو إلا على من يخشونه. لا صراخ ولا دموع.

جاء موتي لطيفاً لطفَ طرف القصب عندما تُغطّ أليافه في المحبرة، وجاء أسرع من الحبر يشربه الورق.

حرصت على أن لا أخلّف ورائي أي فوضى، رتّبت حياتي وأدوات الخطّاطة التي كنتها.

الأقلام* والمكتة** والدواة*** المخضّبة بالحبر كانت في متناول اليد، وفق ترتيب استخدامها وأحجامها، تفصل بينها مسافات متساوية تفادياً للغيرة والعراك. كي لا تتقاتل بعد وفاتي. ذهبتُ مشرقة، تاركة ورائي أدواتي التي تحوّلت امتداداً ليدي وضمةً لأصابعي، رفقة وفاء وطاعة بعد أن عصَتْ عليّ لوقتٍ استبدّ بي فيه المرض والجنون.

---

* كانت الأقلام مصنوعة من القصب.

** صفيحة تبرى الأقلام عليها.

*** تضم الدواة المحبرة ووعاء الأقلام.

كانت شاهدة على موتي، جمّدتْها رؤيته ثم تنفّست الصعداء ما إن بارح المكان. لم تلتفت الى جشماني وكانت سعيدة في الافتراق عني.

دُفنت في اليوم نفسه، على الدين الحنيف، في مقبرة أيوب، تلك التلة المطلّة على البوسفور. أرض موات مسكونة بشجر السرو المشيق. الشاهد على القبر قدّمته جامعة اسطنبول وهو مصنوع من الحجر المصقول يعلوه غطاء رأس منحوت بالزهر والثمر. اللوحة المحفورة تشيد بمهارتي في الخطّ وبتقواي كامرأة.

كانوا ستة حول نعشي: ابني وزوجته اللطيفة والأميّة مرشد، خاتم أختي الصغرى، محسن ديميرنات مدير الفنون الجميلة في اسطنبول واثنان من تلامذتي، مونفر المعروفة بمنى وهي الأفضل موهبة، وعمر الأشدّ كسلاً. تحلقوا في صمت ووقار كأن الحدث لا يثير مشاعر أخرى. ارتاحوا خصوصاً لرؤيتي أرقد بسلام بعد نوبات الجنون التي توالت عليّ. خلصتُ من هذه الرجفة اللعينة التي حرمتني من عطية الحياة الوحيدة: الخطّ والزخرفة رفيقته المتأنقة. ها أنا في سلام، بمنأى عن أي ذعر.

ما إن ووري جشماني الثرى حتى بادرت منى إلى المغادرة وهي تشخص الى الأرض تدوسها بخطى واسعة.

في الغد، أعطى زملائي تلامذتهم لمحة وجيزة عن أعمالي: قالوا إني أصلحت الخطّ التقليدي بتشريعه على التنويعات المعاصرة كما لطّفت من قواعد هذا الفنّ. كلام مستهجن. وحدها منى أدركت معنى أعمالي وسرّ رحيلي.

رحلتُ أثناء رقادي، وأنا في غيبوبة عن نفسي. مع أني شعرت في ذلك اليوم أني بكامل قواي العقلية، حاضرة للعمل بالرغم من مقاومة يدي اليمنى وحدها، يدي التي تضربها الرجفة. لم يبق أثر من هذه المحاولة، لا خطّ ولا سطر. تمددت مستسلمة فوق سريري.

اخترت وضعيتي بعناية بعد أن ترددت في بسط ذراعيّ أو ضمّهما الى صدري. كان شعري مجدولاً يتدلّى على رقبتي، وكنت أرتدي ثوب المدرّسة الذي يغطي ساقَيّ الطويلين. أرقد في نور الفجر الطالع وبشرتي تبدو أكثر صفاء وشفافية مع البقع الداكنة فوق يديّ الباليتين. وحدهما جفناي المُغمضان يخففان من قساوة ملامحي، من وجه النسر الأشبه بمحيّا السلطان محمد الثاني ومن ذقن السطوة.

لم أتخيل مرة هدوء تلك اللحظة. لا فرحة ولا تعسة. كنت لا مبالية. مع أني خفتُ الموت فيما مضى، أذهلتني فكرة إتلافه لجسد أمي .الميتة أو استحواذه على ابني نديم، المولود من زواجي مع سيري، طبيب الأسنان الأناضولي.

تعرّفت على سيري عند عودته من المانيا حيث حصّل دراسته. وبالرغم من لباقته الغربية، بقي فظّاً كالسكاكيني الأرمني الذي يزعق في جوارنا.

احتفظَ من رحلته هذه بذكرى الحمّامات العامة الكئيبة والنساء

النحيفات أكثر مما يشتهيهن. أراد لنفسه امرأة من أهل البلاد، شابة ترعرعت على التقاليد، فوجد في عذريتي وتربيتي ضمانة لتأسيس عائلة مزدهرة. أُعجب بأعمالي في الخياطة فلم يعر اهتماماً لأول تآليفي في الخطّ. اختار، في كياسة مظهره وخشونة داخله، مهنة على صورته: طبيب أسنان كي يقتلع الداء من جذوره. زوجي العتيد كان سكوتاً، على غرار زبائنه الذين يغادرون عيادته مرتخي الأحناك وقليلي الكلام. كان يقتلع الأسنان وأجمل سنوات حياتي بالفظاظة نفسها.

يوم تعرّفت عليه رسمياً أضناني منظره فبدت عليّ الرهبة. لم يكن سيري جميل القوام بل كان جسمه متثاقلاً، وحاجباه أشعثين وشارباه كثيفين. لم يعجبني فيه ملمح، لكن ذلك لا يهمّ. كان دائماً يتفحّص أسنان محدّثه، تشوّه مهني، كان يقول، لكنه كان يزعجني. عيناه المستديرتان الجاحظتان ككرتين كبيرتين تخرجان من محجريهما ما إن يلمح أسنان والدي المذهّبة أو يتّسع بؤبؤاهما عندما يتفحص حنك والدتي. وإذا كان المريض على جانب من الأهمية، راح يفتل طرف شاربيه وهو يتحفّز لمحاصرة فكّيه. اعتبر والدي صمتي موافقة فحدد موعداً للزواج. واستخلص سيري، الضعيف الملاحظة، أن طبعي ليس حماسياً وهو في كل حال يفضّل المهر السخيّ على الثرثرة الكلامية. رأى في صمتي انقياداً وفي طاعتي إعجاباً. وضع والدي في تصرّفنا اليالي المتواضع القائم عند أسفل بيتنا العائلي. وكان مخصصاً فيما مضى للعاملين في الأملاك فاستُخدم لاحقاً كمستودع لقطع الأثاث وأدوات صيد السمك. بدّلت أمي هذا المخزن الرديء من حال الى حال، وأضاف إليه والدي غرفة

لإيواء عيادة الأسنان. في خمس سنوات من الزواج تعلّمت الصمت وحيَله الصغيرة، فكنت أدير أذناً صمّاء للكلام المقيت أو لما يلقيه زوجي عليّ من ملامات، مكتفية بهزّة من رقبتي لازمتني مع الأيام. فقدت عادة الكلام تدريجاً حتى ولادة ابننا نديم. فرافقتُ ولادته بصرخة طويلة ارتعدت منها طيور النورس الواقفة صفّاً على سدّ البوسفور. فوجىء سيري بعلوّ صوتي الى هذا المدى متأسفاً أن لا يكون هو السبب في هذا الحدث السعيد.

أعادت هذه الولادة الضجة الى بيتنا وخلقت هدهدات الأطفال ما يشبه الانسجام كي أدرك الى أي حدّ كنا، سيري وأنا، كائنين متعارضين.

كان والدي يجهل عنائي فيدير ظهره كما يفعل عند عبور البواخر السوفياتية القادمة من البحر الأسود لتمرّ تحت نافذتنا. لم يكن للتحنّن مكاناً على مائدتنا العائلية. فقد بات هذا الشعور محظوراً منذ نفّذ السلطان محمد الثاني حكم الإعدام بأحد أسلافنا، وكان «موقّتاً»* في الجامع الأزرق. هذا الجدّ لجدّي، رحمه الله، كان يدعو الناس الى الصلاة، لكن تأخره المتكرر بسبب تمتعه الدائم بالقيلولة أفرغ من المصلّين أحد أروع مساجد المدينة. وزاد في الطين بلّة عندما سلّم السلطان روزنامة مليئة بالأخطاء للأيام الميمونة والأخرى المشؤومة. شُنق من إهماله. وحتى لما التفّ الحبل حول عنقه، استمرّ في إعادة احتساب مواقع الكواكب في فضاء سلطانه المنجّم. تعلّمنا من قصته أن نعبّر عن رغباتنا بتعقّل وأن نُخضعها لضرورات الحياة. وإذ رأى والدي أنه يُفترض بالزواج الاستجابة للمعايير نفسها،

* محدد المواقيت وواضع تقويم الصلوات وإمساكيات الصوم.

وجد في سيري الحلّ الأمثل لوجع أسنانه.

عكفتُ على تمارين الخطّ أعزّي بها يدي التي تسرّعتُ في الموافقة على طلبها للزواج. كان تحريك الحروف وتشتيت السطور وسيلتي للاعتراض. لكن سرعان ما كنت أستعيد الانضباط الأفقي لأن حروفي لم تكن من الصلابة بحيث أتمكن من تقطيع أوصالها. فكنت أُنزلها متكئة على الورق لأدوّرها مرتين. فتبين من اسم الرسول المتمايل حول اسم الله بقع جافة وأخرى رطبة. فكان الوقت اللازم للتنشيف متوافقاً مع زيارته سبحانه وتعالى، ما لا يزيد عن دقيقة في الشتاء وبضع ثوانٍ في حرّ الصيف اللاهب. الخطاطون ما كانوا ينفخون بفمهم على الحبر أبداً، فتسريع التجفيف يعني طرد هذا الحضور الإلهي. كنت عندها أمرر سبابتي من جهتها الهبراء على الورق، نقطة لحم فوق الحبر الرطب تتقلّص بسرعة. حاول الخطاطون جميعهم التقاط هذا الحضور الإلهي فلم يُفلح أي منهم.

نحن الخطاطين نعرف هذا الطقس عن ظهر قلب.

مضت السنون وبعد التلمذة ها أنا معلّمة. لمَ العجلة، وأنا الميتة، فالوقت لم يعد محسوباً عليّ. ذاكرتي سليمة وذكرياتي حيّة أكثر مما كانت عليه في الحقيقة. تمرّ حياتي أمام ناظريّ بسرعة الضوء، تقتحمني وتنسحب دون إنذار. كل ما فاتني وأنا على قيد الحياة يعود اليّ بالتواتر. أنا الشاهدة على المرئي واللامرئي صار بوسعي أن أروي كل شيء.

خليط من الذكريات، بلبلة كبيرة في هذه العتمة. يتنابني رجع الماضي دون انتظام فلا أقدر على المواجهة. ولماذا أقاوم عندما تطفو اللحظات السعيدة على السطح؟ لا سيما بداياتي كأستاذة في أكاديمية الفنون الجميلة. يحضر صفّي ثلاثون تلميذاً، بعدد سنوات عمري حينها. أعطيت درسي الأول في أيلول، بين قيظ الصيف وعذوبة الخريف.

طلابي يرصدون حركاتي الدقيقة. صبغتُ الورقة. غطّيتها بمحلول لاصق، بللتها بالشاي المغليّ وطليتها بطبقة تحول دون تغلغل الحبر في أليافها. بعد تجفيفها، صقلتها بالصوّان فراح طلابي المذهولين يتمايلون على إيقاع الحجر فوق الورقة التي نعِم ملمسها. رسمت السطور بواسطة خيطان مشدودة على مسافات متساوية وسلّمت يدي الى لغة النبي والى القلم الذي راح يرسم الذيول السوداء السميكة لحروف حديث شريف. رأيت الحبر يرقد ويستبق الأوامر. كان السخام المقطّر معتاداً جولة الخطّ الإعدادية هذه. لكني تسلّيت بالإمساك به فيما هو متلهّف لوطء الصفحة. واعتقدَ أنه يستدرّ شفقتي إذا لطّخها بسكب دمعة سوداء فوقها. شرعتُ في التدوين، فانكمش رأس القصب حزناً ليُغرق ألمه في المحبرة. فجأة بدت له المهمة فوق طاقته. يقال إن بعض الأقلام تخدش طرفها،

تجدعه حتى يسيل الدم فتضع حدّاً لوظيفة الجلاّد المناطة بها. يعاود الخطاطون النافذو الصبر بريَها بحدّ مائل ويرمونها في فُضالة المحترف. عمر القلم المبريّ قصير قياساً على القلم الجديد.

لم يكن تلامذتي يدرون بالحياة الضاربة في أدواتي فراحوا يتابعون المشهد كأنهم يتأملون طبيعة جامدة. وكانت أدواتي هذه مطيعة في بداياتها تنصاع للتمارين التقليدية كالخطوط اللولبية المزخرفة والمتداخلة أو الهوامش المزيّنة بماء الذهب. ثم تواطأتْ معي في تجرؤي. فبدأتُ تعذيب الحروف، أحجر عليها في الزاوية العليا من الصفحة وأشدّ عليها الخناق. الكلمات تتراكب، تتقاتل. مذبحة علم ومنهج، معركة المهارة. تجرّأتُ على ما لم يخطر لأسلافي في بال.

ذات يوم انتابتني الرغبة في مطّ الحروف الى حيث تتحدّى قوانين الجاذبية. فرمقني اسم الله المكتوب بحروف عظيمة بنظرة سوداء جمّدت الدم في عروقي. تعدٍّ ما كنت لأجرؤ عليه إبان تحصيلي في مدرسة خطاطي السلطان.

في انقيادي الى التمارين التقليدية رحت أزخرف المصاحف وأزيّن هوامشها بالورود الدائرية والعناوين والجداول. تميّزت في تزويق كتب المدائح النبوية وكنت أرسم على صفحات مزدوجة مكّة مقابل المدينة المنوّرة. حرمان مقدسان مسوّران باللبنة نفسها. ومن بعدهما مدافن الصحابة وقببها ذات الألوان الزاهية.

وكان معلّمي الكبير، مصطفى عثمان، يُدهش من اندفاعي وينتقد عجلتي، هو الذي كان يتحصّن لأيام في مشغله ممتنعاً عن أي اتصال مع الآخرين لينصرف بتمهّل الى عمله الأخير، طغراء السلطان عبد العزيز.

ويحدث أن يتوجه اليّ أحد تلامذتي بسؤال أعادت طرحه عليّ ذات يوم كافة الأجيال المتوالية: «هل شقّ عليكِ فرض نفسكِ في مهنة الذكور هذه؟». لم يكن جوابي ليرضي فضولهم أو ينجح في إقناعهم تماماً. أراوغ في الإجابة، أشدد على مثابرتي وعلى العمل الدؤوب الذي بذلته طوال سنوات تدرّبي وصولاً الى أول إطراء ممزوج بالدهشة تلقّيته من معلمي. برزتُ دون أن ألفت الانتباه.

في تلك الفترة لم يكن يفطن أحد لوجودي في المحترف حيث كنت أعاون شيوخاً من العلماء المسكونين بكلمة الله. أحضّر الورق والحبر، أنظّف الأدوات وأرتّبها، أحرص على حسن سير العمل في المشغل وعلى نظافته أحياناً. أسهر على راحة ذخائر الباب العالي القديمة، أمثال سليم، الخطاط ابن المئة عام، والذي لم يكن يعمل إلا مستلقياً فوق ديوان وساقه مطوية تأميناً لتوازنه. كنت أسند له ظهره بالوسادات، أنعش رجله الهزيلة وعظامها البارزة وأمسّد ربلة ساقه التي يخزها الألم. كان عليّ أيضاً أن أطرّي رائحة لهاثهم الكريه بتقديم الشراب البارد او الساخن حسب الفصول. وحده محمد الأعرج لم يكن يذوق الشراب، فقَدَ عطشه يوم خسر ساقه. باغتَتْه عائلته وهو يسفّ تفل بنّ الصباح النيء. يرفض أي مساعدة للجلوس وكانت الأوامر تقضي، تفادياً لإهانته، أن أحذَر النظر اليه الى أن ينجح في الجلوس. كان هذا الخطاط الكبير، فيما مضى، يعاني من انحطاط قامته ولا يتحمّل الشفقة. كان يريد أن يوحي بالنفوذ والرهبة.

مختصر الكلام، كنت أشرف على المبنى المخصص لهؤلاء الشيوخ المبعدين منذ وصول أتاتورك الذي منع الأبجدية العربية ومعها الخطّ والخطاطين. كانت رجفة أيديهم تزداد يوماً بعد يوم

وكانوا بالغي الحرص على إخفاء تقهقرهم، فراحوا ينشدون العزلة بعيداً عن العيون الفاضحة. لم يكن أحد يفكّر في الحكم على أعمالهم لكنهم كانوا يكثرون الحديث عنها فيما بينهم ويصفون بأدق تفصيل إنجازاتهم الخيالية. مشغلي كان ملجأ للمهارات المثالية، مأوى للعجائز المغرورين وقاعة انتظار للموت. كنت في آخر النهار ألملم نتاجهم الهزيل وأتلفه دون أن ألقي عليه نظرة.

تحمّلت طويلاً، أنا المرأة الوحيدة المأذون لها دخول هذا الجناح، تعليقاتهم الساخرة، نعتَهُم لي تارة بالناقة بسبب عينيّ الكبيرتين المتهدلتين وتارة بالزرافة لطول ساقيّ النحيلتين. كان محمد يأسف لعدم امتلاء جسمي ويعبّر عن ذلك برسمه حرف الميم مكتنزاً ونحيلاً. التماوج ضروري للحرف كما الأرداف العريضة أو الصدر العارم للمرأة، هذا ما كان يتوجّه اليّ به جاري وهو يخطط رسماً بذيئاً على الحائط. وحده سليم كان يوقّرني. ينكبّ على رسمه، بقيت يده واثقة وتأكدت براعته بحيث قد يعتقد المرء أن ساقيه المريضتين تخلتا عن قوتهما ليده اليمنى. يعمل في صمت مطبق، بعيداً عن ثرثرات زملائه ويقول إنه يكتب تحت رقابة النبي اللصيقة. بالرغم مما يلاقيه من صعوبة في الجثو كان يصلّي فروضه الخمسة يومياً وكنت أعينه على الوضوء. كان الأقل جنوناً بين نظرائه والأكثر براعة وتقوى. ما زلت أسمع تمتماته تنساب على لحيته الطويلة المتلألئة وهو يتلو الحديث الشريف، وأذكر صوت أصابعه وهي تلتقط كل مقطع يتلفّظ به. التزاوج التام بين الكلمة والمعصم يؤكد وحدانية الله. كان يشهدني على مواعظه، يوصيني أن لا أبتعد عن دروب الفضيلة وأن أهتدي بنور الله، سبحانه وتعالى. كان لهاث أقواله المأثورة يلفح

وجهي، فإيمانه كان برائحة كتّان قميصه الخشن المغسول بالصابون ويفوح من تقواه عبق الشهداء.

كان زملاؤه يفضلون له مأوى يبور فيه وينعتونه بالنبي الدجّال. افتراءاتهم لم تكن تؤثّر فيه فيرميهم بنظرة سوداء تتهمهم بالضلال ويسميهم أولاد الجمال. حاولت عبثاً تهدئة أكثرهم حدّة متوسلة اليهم الانصراف إلى أعمالهم، فينسون سليم ويعودون الى تمارينهم الوهمية. علي العجوز يدلّني على صفحاته التي ما تزال بيضاء وينطلق في هذره المشوّش ليشرح لي معاني الخطوط غير المرسومة وتقنياته التزيينية الغائبة. كنت أبدي إعجاباً حماسياً بهذا التمرين المليء بالعدم فتدفع به لطافتي الى مزيد من ذلاقة اللسان ويروح يمتدح مواهبه التي لم يُضعفها تقدّمه بالسنّ، ثم يجعلني أقسم أن لا أفصح بسرّها الى رفاقه، وجميعهم لصوص لا يعرفون سوى سلبه إياها.

بتّ مسكونة برغبة الفرار من هذا المشغل. لكن كان يكفي أحدهم أن يعرض عليّ أياً من رسومه حتى أستسلم وأتخلى عن قراري مغادرة هذا المكان الموحش، آخر مأوى للخطاطين المتمرنين. كان الشبان يأتون ليجولوا في الغرف ويغادرون مغتمّين. سيُنهي الجيل الصاعد العمل بالخطوط الدقيقة والرؤى الغامضة. سيحل التقنيون محل رفاقي المشعوذين. توقف السحرة المحزونون عن نقل همسات الله الذي لن يشعر أنه سيلقى الحفاوة في المباني الجديدة. فهجر تدريجاً هذه الأمكنة الخالية من الصلاة والتعزيم تاركاً المجال أمام شعارات «ذئب أنقره الرمادي»* الشعبية والوطنية.

---

* من ألقاب مصطفى كمال اتاتورك.

المنحوتات الصغيرة على صور الدراويش الواقفة صفّاً فوق رفّ المكتبة تدخل حالة الانتشاء. خطفها الأذان الطالع من المسجد المجاور، ولشدة خشوعها حنت رأسها وطوت ذراعيها على صدرها. لم أستطع كَتم دمعتي أمام هذا المشهد. الشخوص المتحررة من الطبشور تتنفض على صوت الترانيم. طاقياتهم المروّسة تعانق الهواء في ضمّ متكرر يرسم دوائر كاملة. أتركها على هواها، انفلاتها لن يدوم إذ سرعان ما تعود الى تصلّبها الجليل. كنت ألمح أحياناً ابتسامة أو اختلالاً بسيطاً ترتعش معه ربلة ساقيها البارزة، لكنها تتماسك من جديد لتنصاع الى قواعد الجمود القاهرة. قلمي يدخل اللعبة فيروح يتمايل معها. لا لزوم للورق ولا للحبر، فمعصمي المتصلّب لن يسيطر على الزوبعة. ضمّة القصب تهزّ بطنها على الورق النشّاف وتدور حول نفسها. تزوغ العين عن شقّ السنّ في رأس القلم الذي يتباطأ فقط لسحب الحبر. ينزل الرأس مواربة على الورق والرقصة تستمر. الأسود المعتم ينساق طوعاً الى خطوط لا شكل لها الى أن تنبهر عيناي برؤية العبارة المكتوبة على طاقية الدرويش تنبسط أمامي: «يا حضرة مولانا جلال الدين الرومي»*.

* شاعر فارسي من كبار الصوفيين (القرن الثالث عشر) يقوم قبره في رواق الدراويش في قونيا. صاحب «المثنوي».

هكذا كنت أكافح السأم. أتذرّع بنفض الغبار عن أواني البيت كي أتفادى مجالسة سيري. أهرب منه، أنصت جيداً لوقع الأقدام على الأرضية لأتحاشى الالتقاء به. أعرف خطاه وسعاله الأجشّ بعد الوجبات ومضمضاته في المساء قبل النوم. أؤجّل دوماً التحاقي به في السرير حتى أسمع أول شخرة تؤكد لي خلوده الى نوم عميق فأنسل الى فراشه وأنا مطمئنة.

كان دراويش المرمر يتصنّعون الموت في حضور زوجي الطبيب كي لا يحوّلهم رمامات لترقيع الأسنان. فقلاّع الأضراس على ضفة اسطنبول الآسيوية كان الأدرى بأسرار الأسنان ويُحسن انتزاعها برشاقة دون ألم ليرتّبها من ثم بحسب أحجامها وأعطابها. كان يتعلّق بها طالما أنه يحزَر من النظرة الأولى آلامها ومعنى نموّها وتنوع علاقتها مع اللثة. لم يكن يهتم للجنس البشري وحتى لزوجته السليمة أكثر مما ينبغي في نظره، والتي يصعب عليه علاجها وإدخالها ضمن تصنيفاته.

كنّا نحن الاثنين مهووسين بالترتيب. سباق على النظافة بين عدّتي للخطّ وعيادته للأسنان، يلمّعها كل يوم ويطهّر آلاته بعد كل استعمال، المخرطة، نازعة العصب، الصاقلات والكاشطات. كانت هستيريا النظافة هذه بديلنا عن المداعبة وتعبيرات الحنان. بين السابعة والثامنة مساء كان ابننا نديم ينعم بالهدوء بسبب انصرافنا الى طقسنا اليومي هذا، هو في عيادته وأنا في مخبأي الضيق الذي حوّلته مشغلاً.

كنت أجد مهنته كئيبة. ألا تقوم على علاج الضرر في الجزء الظاهر فقط من الهيكل العظمي؟ ما يبقى بعد الحياة؟ ألمح من خلال

الفكّين الفاغرين عظم الجمجمة النحيلة والهازئة. كنت أستفظع عويل مرضاه وصرير المخرطة تحفر الأضراس الصدئة، وكنت أفرح لرؤية الصغار بأضراسهم البيضاء النقيّة يطبقون أفواههم إذا ما طلب منهم سيري فتحها على مداها. كان يسلّيهم بأخبار الكهوف والمغاور والمستكشفين المغامرين في الدخول الى باطن الأرض، هذا الفم الكبير المسوّس.

يوماً بعد يوم راحت مجموعة سيري من الأسنان تتكاثر لتتحول عيادته الى ما يشبه سرداب الأموات.

ذات يوم، كان سليم العجوز ينظر الى السماء مستدرّاً الوحي، فأجاني أنه فقد أسنانه كلها باستثناء ضرس واحدة تجلس كالعمامة فوق لثّته السفلى. فأفهمني بلهجة العالم أن هذه الضرس تؤمّن التوازن لما يؤلّفه من الخطوط حيث يسند لسانه عليها خلال العمل. فدقّته مرهونة بثبات هذه الضرس التي تحولت معاونة له. انها صديقته الوحيدة المستقرة كالنصب، وكان يستحيل حمله على زيارة زوجي الطبيب لفرط ما يخاف ملقطته ونظراته المتوحشة. وكلما كان المريض يعاني الحرمان والحاجة كلما كان الفحص مثيراً. فسيري كان مقتنعاً أن لا أهمية للميسورين في نظر علم أمراض الفم واللثة. فحال الفقراء تتدهور بسرعة أكبر نظراً لانعدام العناية.

ذات صباح، شنق سليم نفسه بالعمامة الخضراء التي اعتاد لفّها حول طربوشه. أعدّ وسيلة صائبة بفضل قضيب الشبّاك الحديدي. لم يكن يعلو وجهه ما يوحي بألم الاختناق وكان شبيهاً بما هو عليه في سائر الأيام باستثناء أن قامته بدت أطول ورجليه العاريتين تلامسان الأرضية الطباشيرية. كانت الآثار الرطبة لإبهاميه ترسم بداية كتابة تصعب قراءتها، حمل سرّها معه. ما زلت أسمع صدى وشوشاته مع ما تبقى له من نفَس ويمكن التكهن بكلماته عبر مسام الجدار الذي كان يتكئ عليه.

للمرة الأولى نظرت الى ميت بدم بارد. سليم كان ميتاً منذ زمن طويل في نظري، وكان تفرّسي في جثته أمراً غريباً، فهو لن يلقي عليّ التحية بعد اليوم ولن يشكرني إذا حملتُ اليه عدّة الخطّ، ولن يغرف أصابعه في وجبة الظهر. لن يشتم سليم العجوز زملاءه ولن يقول فيهم كلام السوء. ارتاح من فروضه الروتينية وترك وراءه عياءه الكبير. نتاجه المذهل في بداياته سكنته مع الأيام خيالات مريبة وكائنات مركّبة آتية من البعيد، من وراء المسكونة. تحوّلت زخارفه الحلزونية الى شراك عنكبوتية ومخلوقات بأشكال حيوانية أو عُطُم*

* كائنات خرافية تعيش في الغابات وقرب البحيرات مغطاة بالشعر ذات قرنين وقائمتين شبيهتين بقوائم الماعز [المترجم].

هجينة. وكان كتاب الحيوان هذا الخارج من بين يديه يرعبه، يحاصر رقاده وينغمس في كل لقمة خبز يتناولها.

كان مصدر ألمه تلك الشخوص الشريرة التي كان يسمّيها ياجوج وماجوج ويقول إنها قَدِمت لتعلن له موته القريب مدّعياً أنه الوحيد القادر على منعها من شرب مياه الأنهر، وعلى منعها من الوصول الى الخزانات. ثم كان يتباطأ في كلامه قبل أن يرفع شكواه بصوت من وراء القبر أن نوره الوحيد، نبيّنا العزيز، قد تخلّى عنه.

يثور سليم عندما لا تطيعه يده فيحاول عبثاً استدراجها الى فضاء مسكون بالدوّ* والجنّ، الى أوهام زخرفية تبعده عن الخالق بدل تقريبه منه. فكان يرى في ذلك تبرّؤاً منه وينغلق في صمته المقلق رافضاً أي اتصال مع الآخرين.

يعرف كيف يتحوّل مساحة ساكنة الى درجة أني عندما رأيت جثّته راودتني فكرة أنه يسخر منّا. لكني لم ألمح أي شرارة في عينيه، ولا أي تقطيب في الحاجبين. هجَرَت غبطة المؤمن راحتيه المتهدّلتين. كان متيبّساً كأقلامه وقاسياً قساوة خشب ريَشَه فأخرجوا رأسه من العمامة التي خنقته. تلا الرجلان اللذان وارياه الثرى السورة الوحيدة التي يحفظانها غيباً ليضفيا على الدفن شيئاً من الاحتفالية. لا شكّ أن روح سليم ستظل لسنوات تتسكع في محيط مدرستنا بحثاً عن أدواته الكتابية ونماذجه البكر و«المقصّات» المهداة اليه من زهدي أفندي، خطّاط السلطان المعظّم عبد المجيد. سيفتقد في رفاهيته الجديدة الى مرفقة يده الموشّاة بنوادر خطوطه وإلى بابوجه المبقور.

---

* عبارة فارسية تشير إلى أرواح الظلمة والأذى. يأتي ذكرها مراراً في الملاحم الإيرانية حيث يتخذ بعضها طابعاً خيراً.

فوجئت كثيراً وأنا أرتّب أغراضه عندما وجدت رزمة موجّهة اليّ، دُسّت تحت الحبل الذي يربطها ورقة باسمي، «الى رقّت»، مكتوبة بعناية. انها هبة ثمينة تبرهن عن مودّته لي وطريقته في شكري على مؤازرته وإطاعته في أغلب الأحيان.

بدا لي اجتياز البوسفور طويلاً لا ينتهي وأنا حاملة غنيمتي. وقفت على جسر القارب الأمامي وأنا أرنو الى «بكلربكي» متلهفة الى النزول على الرصيف. ستكون مثقّبات الأسنان الدوّارة الخاصة بزوجي شريكة لي. سأتمكن من ترتيب مشغلي بصفاء كلّي لأجعله جديراً بالكنز الذي سوف يغيّر حياتي.

صففت الوثائق بحسب أحجامها وفتحت القرآن الموقّع بالصمغ والمُهدى الى سليم من أستاذه، ثم رحت أقلّده كيف كان يطبع قبلة المؤمن على القرآن وهو طقس اعتمدتُه مع الأيام. كنت أقلّد الفقيد، أذوب فيه، أفتح علبة المخمل الأحمر الرمّاني حيث رتّب مقصّاته والدواة وأنا ألفّ حول الإبهام والسبابة حلقتين من الفضّة، فقد جعلني، بموجب وصيّته، وريثة لها. لا بد أن سليم أوضح لها تسرّعه في الذهاب وإرادته في وضعها بين يدي شخص موثوق.

اتّخذ رفاقي الجدد مكاناً لهم على الطاولة الى جانب عدّتي كمتمرّنة وقد بدت باهتة مقارنة بهم. تابعت استكشافي وقد استكنتُ بعد أن رتبت إقامتهم جيّداً وتعهّدت عدم الانفصال عنهم، عدم تركهم أبداً. فتحوّلوا جزءاً لا يتجزأ من جسمي، امتداداً ليديّ وشركاء متواطئين في هروبي الى الخطّ. أنبوب بيضوي الشكل كان يحتوي على ثروة سليم وهي الحبر المستخرج من أوراق الذهب المسحوقة والمذوّب من ثم في محلول العسل. تصوّرت ما استلزمه تحضير ذلك

من ساعات طوال إذ كنت أرى سليم يصفّي ويصفّي من جديد النقيع المستجمع. وكان في تحسينه الدائم هذا كأنه غارق في رؤية الروح تتفلت من المادة فيستحوذ عليه نوع من النشوة مع تحريره الذهب من أدرانه. طوال حياتي كخطاطة لم أجمع بين يدي سائلاً بهذه النقاوة. وسرعان ما واجهت كيفية استخدامه واختيار نوعية الورق الجدير باستقباله.

كانت روح سليم تتفحّص أصابعي وتترصّد ردود فعلي بحنوّ وترقّب الاستقبال الذي أعدّه لأدواته. ورثت عائلته الوحيدة وكان عليّ أن أثبت جدارتي بها.

هكذا صرت خطاطة. هذه الهبة القادرة أن تنقل اليّ مهارة الخطّ طويلاً ستحافظ على عادات معلّمها، مهارة يديه ورشاقة أصابعه. وإذ أدركت أن هذا الميراث سيغيّر حياتي، حافظت على سرّه وأخفيت فرحي بنفس السهولة التي تعوّدت بها إخفاء معاناتي. نحن الخطاطين نعصي على الفهم، فالحبر يعلمنا الكُمدة.

فتشت في أوراقي فوقعت من ذهولي على وثائق شخصية: مراسلات قديمة من قرن مضى، من إنسانية أخرى، صور فوتوغرافية، مقاطع من خطوط تزيّن القصائد والأحاديث الشريفة، وفرمان نصّ رسمي ملفوف ما تزال بادية عليه حبيبات رمل رماها عليه من أوصى عليها من نفاد صبره. هذه الرحلة في حميميات معلّمي كشفت لي عن وجه جديد له، فتَويّ كنت أجهله. رحلة كانت خاتمتها رسالة تحتوي من الألغاز بقدر ما كان يتفوّه به العرافون القدماء. سأمضي بقية حياتي في فكّ رموز هذه الرسالة سعياً لفهم أسباب انتحار سليم.

أنا مرابط الله. لم تنضب محبرتي يوماً حول انتصاراته المجيدة. لم

يغلّف عرشه ينير أوراقي وحدي. إيمازاته الدينية والعسكرية تطوّق نماذجي كأنها جنود ظلالها من الأبجدية. طواعية حروفي تطمئن مخطط هذه الغزوات.

رأيت الواجهة، القبة وجبهية مرسله وكرّست سنوات لإعادة تكوينه لكن القاطنين في قصره جعلوني أنسى تعابيره المجعدة.

الحاجبان كحسامين مستلّين وجبهته على صورة هلال أطلقت نحوي اتهامات قارسة. شفتاه موّجتا الورق المعرّق. لهاث قائد القافلة عطّر محترفي وخضّب أوراقي برائحة القداسة المرّة. ارتعبَتْ أدواتي من أحكامه العقابية وغضبه القديم آخذة على نفسها تجروْاً كهذا.

وجاء يوم توقّف فيه نفَسَه عن ريّ حبري فتلاشت يدي ساعة هجرني. ناديته مراراً لكنه لم يكلّف نفسه عناء الجواب. عندها قررت الالتحاق به حيث يقيم لألتمس منه الغفران.

ما زلت أنتظر مقابلته.

كم من الوقت انتظر سليم للوقوف بين يديه؟ وهل حصل على الغفران؟ لا أحد يعرف. سوف أتلقّى العقاب نفسه بعد مرور سنوات عندما يقترب الخطاطون من الموت فيغرقون في الجنون.

أدركت مع هذا الوداع النسخي مدى اضطرابه عندما كان يشكو من أن نوره الوحيد، الرسول، تركه.

انعزلت في سرّ معلّمي رافضة مشاركة أي كان به. فكرة إلباس هذه الرواية كلمات عادية كانت ستنزع عنها السحر كله.

نسيت سليم ليتسنى له أن ينعم بالراحة، نسيت وداعه الغامض ونميمته لأنصرف الى العمل. وكنت مرتعبة من استخدام أدواته

المشبعة بتجديفه، فلم يكن الحماس بادياً على الأقلام والريش. وما كان يُفترض بي توسّل مهارتها فسكتُّ عن إعجابي ومواعظي. كانت تفضّل الكشف عن نفسها وفق المزاج. تأتي اليّ، لعبيّة، لتساعدني في تهذيب تآليفي قبل أن تستعيد ثياب الحداد. ترتعش بين أصابعي تحت وقع هذه اللحظات العابرة قبل أن تتمالك نفسها وهي خجلة من تذوّقها السعادة. تعوّدنا على بعضنا مع مرور الزمن. كانت تفوح من عملنا رائحة اللذة والخطيئة. فكل قبلة تولّد سطراً وكل ضمّة صفحة. أدوات سليم تنحني على الورق والقلم لا يتوقف عن طلب الحبر من الخزان الذي لا ينضب. النثار الأسود لا يشبه شيئاً، وأترك يدي تنقاد في اتجاهات متعارضة. بيد أن الفكرة كانت واضحة. كان يلزمني ثانية واحدة بعد انتهاء الترسيم لأدرك كنهه. أجلس وراء مكتبي فأرسم، دون أن أدري، صورة لي كما يراني سليم غير المرئي. أدركت أنه اختار المقعد الصغير بدون ظهر، الموضوع تحت شباك محترفي والعابق برائحة حبره وعرقه العتيق. كانت زيارته افتتاحاً لتعاوننا الأول. وسنحت لي الفرصة مجدداً بعد عام، يوم قررت المدرسة إطلاق مباراة لإخراج الخطاطين القادرين على إعادة الحياة لهذا الفن من تسترّهم. ومن أصل مئة مرشح اختاروا امرأة: رقّت كونت، ابنة نسيب بك من بكلربكي وزوجة سيري انس، طبيب الأسنان الوحيد على الضفة الآسيوية للبوسفور.

فرضت نظاماً صارماً على طلابي. كان فضولهم تحوي لا يرتوي. بيد أنه كان أمامنا الكثير من العمل، فأيديهم ما تزال خرقاء وكتابتهم تجرّح الورق. لم تكن عيونهم تتمتع بعد بحدس الخطاط المستنير. أسترجع مسيرتي دون أن أمسّ حياتي.

يستندون الى كراسيهم ويستعدون للإصغاء اليّ. طلبت مني منى أن أحكي قصة مباراة 1936 التي مثّلت علامة بارزة بالنسبة لجيل من الخطاطين. قدّموا الي أنفاسهم كما تقدّم المحبرة. انحناءات صاعدة ومنحدرة وحلقات طويلة تبث الحياة في روايتي، الألفاظ تتسابق الى شفتي. جمهوري يلهف كلماتي ويحاول إعادة تأليف المشاهد. حتى أن الشخصية الواحدة توحي لهم بجمهرة من النسخ التي تسكن مخيلتهم. خمسون عاماً تفصلنا عن هذه الذكريات بيد أني أشعر إذا تحدثت عنها أنها على رؤوس أصابعي.

•

استبدلت الجمهورية التركية عام 1928 الكتابة العربية بصيغة معدّلة للأبجدية اللاتينية. وقد قُدّمت الأبجدية الى مصطفى كمال على لوح من ذهب. اختفت الى الأبد سلالة الخطاطين الطويلة وأساطيرهم المتناقلة وألقابهم غير اللطيفة كـ«الفقير» و«الأحدب» أو أيضاً «الخاطىء»، اختفت الى الأبد كما انمحت الإشارات الدالة الى قبورهم فباتت مغفلة. تحررت التآليف من التظلّمات الدينية وعفى

الزمن على روحانية «الخطّ الجميل».

في العام 1936، انتقلت مدرسة فنون الكتابة الى أكاديمية الفنون الجميلة في اسطنبول حيث كنت أدرّس. أفقر الإصلاح المهنة الى حدّ كبير، سواء بغياب أبرز فنانيها أم بزوال انتقال المهارة المحكوم عليها بالنسيان. كما طُرحت مسألة المحافظة على هذه الأعمال والمفترض تأمينها من قبل الأجيال الطالعة.

هل كان صوتي يصل الى مسامع سليم العجوز الذي انصرف الى الدعابة بعد موته؟ كان يتسلى بالتشويش على دروسي كأن الماوراء لم يكن على قدر طموحاته. لم أمانع ابداً في وجوده باستثناء صبيحة هذا اليوم الذي نشر فيه الفوضى داخل محترفي. وتذكيراً بهذا الحادث، توقفت عن لفظ اسمه والإشارة الى أعماله وحتى الى نهايته مع أنها صورة مميزة لهذا الانتقال التاريخي.

كانت المباراة تهدف الى اكتشاف مواهب شابة وتأكيد استعداد تركيا لخوض هذا الفنّ. كنا حوالى المئة مرشّح من مختلف المناطق: من البحر الأسود والأناضول ومن اسطنبول بالطبع. كانت غالبيتنا تمتلك العدّة فيما يتّكل الأكثر حرماناً على كرم المنظّمين للحصول على الحدّ الأدنى من الأدوات. أدوات كان البعض الآخر يعرضها على الملأ فوق المكتب. رصفتُ معدات سليم وحبره المذهّب المعروف والذي احتفظت به بعناية منذ سنوات. كنت أحرص على عدم اجتذاب النظرات الحاسدة واستقرّيت تحسّباً ليوم كامل من العمل. ساعدني جاري على سند قائم المكتب ثم عرّفني عن نفسه. نجم الدين اوكياي. سيصبح صديقاً لي.

سألني طلابي المزيد حول من سيصبح في نظر الجميع رمزاً

للمهنة. لم أسهب في الكلام لكني ذكّرت بموهبته في القوس والنشّاب وتقنيته التي لا مثيل لها في التزويق والورق المعرّق. سمّي فيما بعد إماماً في جامع يكي* لكني أعرف مقدرته كخطاط أكثر مما أعرف عنه كعالم.

مستقبلنا كان يتوقف على هذه المباراة، لذلك ساد الخشوع الصالة. كانوا قد وزعوا علينا نسخة من لوحة، وكان التمرين يقوم على نقلها بأفضل دقة ممكنة وعلى التقليد الصحيح للرصيعة التي تحتوي البسملة وآية قرآنية متداخلة متناظرة كما في المرآة. كانت الكتابة بلون الذهب على خلفية سوداء. المرشحون المتواضعون كانوا يحصلون على دهان أصفر مبتذل، بينما يستفيد الآخرون من كرم عائلاتهم. أما أنا فقد وجدت ثروتي في آخر نفَس لسليم، محبوساً في السائل وفي مهارته التي لم تخنه أبداً، حتى في موته.

عادت معداته الى الحياة في ذلك اليوم ووجدتُ صعوبة جمّة في كبح حاجتها الى استلحاق السنوات الضائعة. كونسرتو مرتجل كان يُعزف أمام ناظريّ: القلم يصبح نایاً بين أصابعي وركيزته تحاول أن تكون قوساً والورق يتحول مدرّجاً موسيقياً خدمة للباقين.

يطيعون بأمانة توجيهات سليم المشرف على انتقالهم المستمر ورسومهم الشهوانية على الورق المقوّى. كان الموت يجهد في تذكيرهم أن اللذة لا تدين بشيء للنموذج المعروض وأن جماعهم مع الورق لا يفترض أن يتسمّر في انحناءة إلهية، بل أن يولّد تشابكاً فاحشاً بين الحروف. استعادت الأدوات رشدها فراحت تنفصل عن بعضها لتعود الى الصفحة فتنتج من جديد الترسيمة الأصلية.

* بلفظ: جامع يني.

سليم نفسه لم يعد يميّز النسخة عن الأصل واستمرت الحروف في تبادل تنهدات الرضى من خلال السائل المذهّب.

هل ساهمت في هذا العمل؟ ما زلت أطرح السؤال على نفسي. ربما تكون حروفه أفلتت من يديْ سليم التقيّتين لترسو بين يديّ المتعطّشتين للمعرفة.

انتهى النهار فوضّب المرشحون عدّتهم وتركوا أعمالهم تجفّ تحت الرقابة اللصيقة للأساتذة وهم يجولون في القاعة متربّصين بالتحفة الكاملة. يعلّقون على المتبارين ويحاججون لصالح هذا أو ذاك. مشاورات هامسة تبعث فينا القلق. فضّلت انتظار الإعلان الرسمي عن النتائج التي سيذيعها إسماعيل حقّي، مدير مدرسة الخطاطين.

فوجئت عائلتي بطموحي. وفوجئ سيري أكثر بتقدمي للمباراة. انزلقت كلماته عليّ دون أن تجرحني وبدت لي تافهة قياساً بالمشاعر التي حملها ذلك النهار. اغتاظ من عدم تأثّري بتأنيبه كما كان يأمل فاستغلّ الحادث ليشكو إهمالي الزوجي له. كان يشعر أني في موضع آخر، بعيدة جداً. اتّهمني بتفاديه وبالانكفاء لساعات في محترفي. لم يكن ارتعاش شاربيه غير المتناسقين يبشّر بالخير. كان تقدّم بترشيحه عندما بدأت الحكومة بانشاء شبكة طبيّة في المناطق النائية من البلاد. كانت أجيال المطببين والبيطريين وغيرهم من قالعي الأسنان لا يثقون بالوافدين الجدد. بيد أن قونيا، أهراءات البلاد، كانت بحاجة الى أطباء ومولّدين وأطباء أسنان حقيقيين. عيادة أسنان كانت تنتظره هناك.

كان يصعب التبرؤ من حماسته ومع ذلك فإن الإعلان عن موت

قريب ما كان ليؤلمني أكثر. سلّمني الرسالة المختومة بخاتم الجمهورية التركية بالحركة نفسها التي سلّمني بها ابني نديم خربشاته. بذلت شفتاي جهداً يفوق قدرة البشر كي أهنئه. كنت خراباً مليئاً بالشظايا المتساقطة في قرقعة مستمرة، وكان هو قلعة منيعة. مدفعيتي بائسة مقارنة بما لديه وخطوط كتابتي عاجزة تجاه هذا المنفى القسري.

أحسّ سيري بكآبتي وراح من شعور كاذب بالذنب يمتدح حسنات قونيا الثقافية كونها محجّة ومحطة قديمة للقوافل. كان هذا الصرح يعجّ بالتآليف الكتابية.

. انتقلنا للسكن في منزل من طراز المدينة في جوار مدرسة قراتاي القديمة والتي تحولت متحفاً عام 1927. وكان أشد الدراويش المعارضين لأتاتورك هجروا المدينة والبلاد مخلّفين وراءهم موسيقى الناي والكمان الأوسط الجارحة، وبقيت أشباحهم تدور على اعقابهم اليسرى في طقسهم الراقص. كانوا يختارون الأمكنة حيث ينتشرون على مرأى من الجميع قبل أن يختفوا داخل الجرف الرملي في سهوب الأناضول. جاءني أحدهم في زيارة مشهودة، راحة يده مفتوحة الى الأعلى، تتقبّل النعمة من السماء وتنقلها الى الأرض. بهرني دورانه الى درجة أني لم أره يغادر. انسحب شبحه بنوع من المعجزة بعد ن اختار أفضل زاوية في الغرفة للانطلاق. كانت طريقة فريدة للاحتفال بقدومي. استقبال مخصص لي وحدي. مبعوثو الحكومة لا يحظون بمثله.

أقام سيري عيادته الى جانب حمّام المدينة. يوم الافتتاح وصل صفّ المنتظرين الطويل والمتعرّج الى بسطات السوق. وقف العجائز في الطليعة ووراءهم النساء والأطفال وكان هؤلاء يثيرون الفوضى

بين الجمهور ويرتجلون الألعاب من ضجر انتظارهم. طلب سيري من الرجال العودة في اليوم التالي فانخفض الصفّ الى النصف. عالج أكثر من أربعين مريضاً في اليوم الأول وراح العدد يزداد مع شيوع صيته. في المساء كان يعود اليّ بشائعات المدينة، خصوصاً بالفضائح.

وصف لي بالتفصيل الصاعقة التي دمّرت عام 1901 مئذنة المدرسة المشيقة. واعتبر المؤمنون هذه الحادثة الطبيعية قصاصاً إلهياً. فضاعفوا من تعبهم في الحقول ليحققوا تلك السنة أفضل المواسم في تاريخ القرية. أخبرني سيري أيضاً أن الأعمى الذي يروي تاريخ السلجوقيين على الساحة كان صحيح النظر، وأن باقي، العجوز، يسكن خارج القرية في بيت يعجّ بالطلاسم والتعاويذ. كانت المراهم التي يحضّرها من مزيج الأعشاب والشحم الحيواني تداوي الآلام جميعها وكانت محاجمه تريح من التيبّس والتشنّج والالتواء. طبيب وعرّاف. يقرأ الطالع في لحم السمك الآتي من بحر قزوين. كان سيري يحتقر هذا الطبيب الدجال وينعته بالساحر. وعندما كان يضيء أنوار يوم السبت* أو الهانوكا** يلتفت جيرانه نحو السماء مطالبين بحماية أحد القديسين المحسنين. صيام رمضان كان يستمر شهراً أما صيامه فيستمر يوماً واحداً. وكانت دهشة جيرانه تزيد عندما يغرق في صمته مساء الجمعة فلا يشعل نزراً ولا يسخّن طعاماً ولا يستقبل زائراً. عزّ على بال بعض أهالي القرية تبنّي هذه العادة المستحبة لكن عالم المدرسة اعترض عليهم ونعتهم بالكفرة.

---

* يوم «التوقف عن كل عمل خلاق» عند اليهود.

** عيد يهودي للاحتفال باستعادة الهيكل في أورشليم في القرن الثاني قبل الميلاد.

تأثّر سيري بسذاجتهم فكان يتحدث عنها بعبارات عالم الأناسة الذي يكتشف شعباً بدائياً.

كانت نهارات زوجي مليئة قياساً بنهاراتي الموزّعة بين متابعة دروس نديم وزيارات زوجات الوجهاء اللواتي ينظرن اليّ بعين الريبة. فنساء اسطنبول متهتكات في نظرهن.

وكنت أغطّي رأسي وكتفيّ بوشاح لأزور المعالم الدينية في المدينة فأدخل الى الصروح وأتأملها بعين الخطاط. حوّلت مؤخراً مقصورة الدراويش القديمة الى متحف. كان مراد، المتولّي على الأبنية التاريخية، دليلي الى هذا المكان الذي كان في ما سبق مفتوحاً بوجه القصّاد. أوقفني أمام فسقية نيسان المليئة بالمطر المقدّس الجالب للشفاء والخصوبة وطول البقاء.

كنت أشعر دائماً بوجود الدراويش الغائبين في مكان إقامتي. يحضرون للتأكد من أحوال منزلهم القديم وكان الهواء الميت يعبّر عن ضياعهم. فإذا حرّكته الأجسام الدائرة يمكنه أن يسرّع أو يبطئ رقصة الجبب البيضاء واللبّادات الحمراء. والجبّة المتصلّبة تصبح كفناً واللبّادة نُصُباً. كان الدراويش يأسفون للهواء الذي يستأهل الأفضل.

ترافق الربيع في هذه الأعالي ريح ساخنة صوتها غريب. لم أكن لأفهم هذا الزعيق ولا أنجح في قراءة ما بين رشقاته. يجتاز المراعي العالية وصولاً الى الطريق الرئيسية كأنه يدلّني على الدرب الواجب سلوكها لأغادر المدينة التي هجرها خدّامها، والتي سبق لها أن كانت محطّة للنبيّ أما اليوم فهي مباحة للسياح. يناديني عبر النافذة، ينقر على زجاجي. عصفت ريح حارة مطلع نيسان فذابت للحال قبيبة

الثلج من على رأس الجبل. استعاد التلّ خضاره وعادت الى قلبي المتحجّر حرارته وحريته.

تركت ورائي سيري ووحل قونيا وأثلام الأرض الحمراء المحروثة لتوّها، وأشباح الدراويش المحلّقة فوق معقلها المفقود. عاد نديم برفقتي. البوسفور وبيت الأجداد بانتظارنا. كان يُفترض بي العودة الى قونيا في مطلع الخريف لكن هذا الفصل اختفى الى الأبد من روزنامة ذاكرتي.

إراحة لضميري وتعويضاً عن إهمالي واجباتي الزوجية انهمكت بجموح في ترتيب بيت بكلربكي المهجور منذ شهور. لا غبار يقاومني. أنزلت الستائر والبسط ورحت أنظّفها بحنق. يداي تنشغلان في مزيج الصابون، على ايقاع الفرشاة والخرقة وملاقط الغسيل. أخرج معاً الأواني التي لا لزوم لها والذكريات المرّة: صحون مشرومة ومجموعات الكؤوس الناقصة، صور العرس وثياب سيري كلها. رميتها في حقيبة عتيقة وأقفلت عليها في غرفة دون شباك. أبرد غرف البيت وأشدها عتمة.

بعد ترتيب المبنى انتقلت الى المستودع فحولته الى محترف. فتحتان مزججتان تغدقان النور على أدواتي.

الطمي على الشاطئ الموحل ابتهج لرؤيتي أعود لأستقر هنا، أنفض الغبار من القبو الى السقيفة. كان نديم يركض بين بيتنا وبيالي أهلي على بعد أمتار، وهو الوحيد الذي حافظ على طلائه الأحمر كما في مطلع القرن. لم يتأخر سليم العجوز عن زيارتي. دخل متهادياً يطير على علوٍّ منخفض يضاعف من البهلوانيات لإثارة إعجابي. مشهد يحسن تأديته غيباً، رقصة لا بدّ أنه تمرّن عليها طوال أشهر غيبتي

في قونيا. كانت حدوده معروفة إذ لا يحقّ له الابتعاد عن البوسفور وخصوصاً التوجه صوب سهوب الأناضول، أرض الجحيم.

كان متلهفاً للقيا أدواته فارتجفت يده لرؤيتها. وكان متظراً أن يبرأ من هذه الرجفة لفرط ما قطع من أشجار السرو في الحياة الآخرة وهو تمرين يشدّ مفاصل يده المرتخية والتي كان يوجهها نحو القمر ليحظى بحسناته.

عند رؤيته افتكرت رغماً عني بعجائز المدرسة الآخرين. هل ما زالوا في هذا العالم؟ هل ماتوا ميتة طبيعية أم دُفعوا اليها؟

أرعبتني زيارتي الى المدرسة. أمكنة موبوءة، جدران سوداء يعلوها السخام. أصدقائي القدامى منزوون خائرين، نظراتهم فارغة، حتى الجنون ما عاد يجرؤ على الاقتراب منهم. لا أحد يوفّر لهم لزومهم من عدّة الشغل. كانوا يتلفظون بعبارات مبهمة ويجرجرون عظام أجسادهم. محمد يتسلّى بنزع ثيابه من أسفل الى أعلى ليطويها بعناية ثم يعيد التمرين المعاكس. غيره ممن فقدوا الشعور بالزمان والمكان كانوا يعتقدون بأن ستة أشهر مرت في يوم واحد. لم يعرفوني كما لم يزعجهم دخول امرأة عليهم. فتابع مراد ابن المئة عام تلاوة الآيات القرآنية كإمام من أعلى المنبر:

(ن و القلم وما يسطرون ٠

ما أنت بنعمة ربّك بمجنون) *

لم يكن لخطبته أي وقع على زملائه ولم يكلّف أحد منهم نفسه الإصغاء لكلماته الحكيمة. حتى أن أحدهم حاول صفعه متحدياً إياه بإشهار سبابته في وجهه شاتماً.

---

* السورة 68، 1-3.

حبست دموعي.

هل أنا واقفة في مكان العبور الى المطهر؟ انتظرت وأنا منقبضة أن يحملهم الله الى جنته.

بدت لي ممرات المدرسة فارغة، هُجرت منذ راحت الأكاديمية الوطنية للفنون الجميلة تستقبل طلابها الجدد. تحوّل العديد من الخطاطين الى أساتذة. وبحسب رَحْمي، بائع الدراجات الذي امتهن أيضاً أمانة هذا المبنى القديم، أي كنّاساً وجامعاً لأوراق الشجر المتساقطة، فان مركز التعليم الجديد له مظهر الجامعات الغربية. يرتدي الأساتذة البزّة الأوروبية ويُعلن انتهاء الدروس عن طريق جرس أكثر ضجيجاً من أذان المسجد المجاور. أخبرني عن مرشّحة شاركت في مباراة الخطّ في العام المنصرم لكنها اختفت دون تفسير في الوقت الذي فازت بالمرتبة الأولى. يقول البعض انها توفيت ويعتقد آخرون أن والدها احتجزها في مرحاض البيت. ولم يسع منظمو المباراة لإبلاغها النبأ السعيد خشية مواجهة والد أو زوج غضوب. كان رحمي يتحدث عنّي دون أن يدري.

نجم الدين أوكياي، الخطّاط الكبير، كان في الوقت نفسه إماماً لجامع يكي وبستانياً. بيته على صورته، متواضع ومحنيّ بقدر ما كان يحني هو ظهره فوق الورود يتنشّقها. كان عاشقاً متيّماً بهذه الزهور، يعرف عن ظهر قلب الاسم النباتي لأربعمائة صنف منها وعدداً مماثلاً من الآيات القرآنية يتلوها بصوته الأجش. استقبلني بحرارة وعرّفني على وروده واحدة واحدة كما السلطان يستعرض محظيّاته.

ثم سألني دون مقدمات عن سبب غيابي بعد المباراة. تهرّبت من الإجابة بقدر ما كان متهرّباً من الإصغاء. ذكّرني أنه في ذلك اليوم حاول تثبيت منضدتي. سرَت حول غيابي أغرب الشائعات. عُلّقت مسابقتي عند مدخل الأكاديمية.

كان نجم الدين يقطع تعليقاته بصلوات قصيرة من شأنها استدرار حسنات الله عليّ. تبعته في تجوّله بين وروده. كان لكل واحدة الحقّ بالبركة، وكان البستاني المحبّ للبشر مقتنعاً بأن المهارة عطيّة نتقاسمها ونتناقلها. يقول بلهجة الواعظ إن الله يوزع ونحن نعيد بدورنا التوزيع الى أبد الدهور. يدا نجم الدين ترتفعان على الدوام نحو السماء ونحو الخالق الذي كان من غفوته المقدّسة يملي عليه الكلمات الصالحة لمديح كبرياء وروده ويحذّره في الوقت نفسه من التطعيم الذي يهمس به إبليس. سيبقى بستانه تحت عين الله

الذي يبعد عنه العواصف ويقطع شعاع الشمس طالما لم تطل أزهاره شحمة أذنه السفلى. لم يكن نجم الدين الأمين للتوجيهات الإلهية سوى الناطق باسم العليّ الكبير وجزء من ظلّه على الأرض. كنت أشك بأنه لا يهتم فعلاً لحالتي وهذا ما جعله يقطع لقاءنا بصورة فظّة في استعجاله للإمساك بمقصه المتواطئ مع الدورة القمرية.

انتهت محادثتنا بتبادل مهذب للتمنيات.

في طريق العودة كانت قدماي تدوسان الحجارة فتصدران أصواتاً أشبه بالشكر المتواضع. توّجت جهودي بحصولي على وظيفة أستاذة، ما حررني من أي شعور بالذنب إزاء سيري المستعجل عودتي الى قونيا. انتقل بعد شهر الى التهديد فسقطت علينا كلمة «انفصال» دون أن أضطرّ الى التلفّظ بها. كان غريباً في نظري، هكذا كان على الدوام ربما. تركته وأنا منشرحة.

استأنفت عملي بنوع من الابتهاج. راحت هوامشي تزخر بالأغصان المزهرة والخزامى والنسرين والورد والقرنفل، كل تويجية فيها مرسومة بعناية. كانت ورقتي برائحة الأرض المبللة وندى الصباح الباكر. كنت أسقي التآليف، أقلّم الأعناق الزائدة والتويجيات الذابلة.

أدواتي تبتهج بالاحتفال تحت نظر تلامذتي العتيدين وأضطر الحبر للإمساك عن السيلان ساعة الاستدعاء الرسمي الى الأكاديمية. حُدد الموعد آخر بعد الظهر في القاعة المخصصة للأساتذة. اسماعيل حقي المشرف على المباراة افتتح الكلام وعبّر في أسئلته عن شكوكه في قدرة امرأة تجابه مهنة رجال. أسئلة تقنية أيضاً حول تحضير مواد الخطّ وغيرها تتعلق بمعارفي الدينية. كان سليم العجوز يتسلى

وهو يهمس الأجوبة في أذني وقد فوجئ أعضاء اللجنة الفاحصة لسماعي أكشف أسرار صناعة بقيت محفوظة في المحترفات طوال قرون. كانت الأمزجة التي أصنعها تتضمن مواد غير معروفة، مستخرجة من نباتات زالت من الوجود وعلى نُسغ من قوارض في طور الانقراض أو أطايب ذات أسماء غريبة استخدمتها الشعوب الوثنية فيما مضى. تفوح من خليطي رائحة السخام العتيق وحامض أفران صانعي الخزف وعرق أو انبعاثات خرفان الأضاحي. البخار الخيالي لأبيض الاسبيداج والخلّ أو لحميرة الكافور كانت تعبق في أنف سليم وهو يستعيد سنوات تلمذته وتحذيرات معلّمه. كان هذا العجوز المجنون يمرر لي أسراره وأنا أوصلها بلهجة الوصايا العشر:

«تزن السخام وحجر الشبّ بالتساوي
تضيف لها الضعف من جوزة العفص
والثلاثة أضعاف من الصمغ
وتحركها بقوة ذراعيك»*.

أربكهم خطابي حتى أنهم اضطروا للتشاور قبل اتخاذ القرار. دعا اسماعيل حقي زملاءه للعودة الى أماكنهم وأصدر حكمه. بلهجة رسمية. أمزجتي وتعابيري بدت لهم غارقة في القدم وبعض مكونات وصفاتي لا وجود لها حتى لدى العطّارين المموّنين جيداً. بيد أن معارفي تبرر قبولي في الأكاديمية.

تهانٍ مشوبة بالمرارة وتحذير ضد أوهام المهنة. ليس مستحباً أن يكون المرء خطاطاً في زمننا هذا، فالطباعة والأبجدية اللاتينية

* وصفة عربية قديمة.

المفروضة من أتاتورك حالت دون ازدهار المهنة. المطابع تعمل دون توقف حتى خلال رمضان وحروف الرصاص لا تجد أي مشقّة في الربط بين الشهيق والزفير. نحن الخطاطين كنا، على العكس، نقطع نفَسَنا لرسم الحرف ونأخذ نفَساً عندما نغطّ طرف القلم في المحبرة. أخبروني عن الانتفاضة والمسيرة المناضلة قبل سنوات في شوراع اسطنبول والتي حمل فيها المتظاهرون نعشاً مليئاً بالأقلام.

لم ينل من سعادتي سوى ملامة زوجي الذي طاردني بالرسائل. لكن خيبته لم توازن التشجيع الذي لقيته في الأكاديمية. تسلمي مهامي جلب عليّ أفضال خطاطة عثمانية كبيرة توفيت قبل قرن مضى. رسمت أسمى عبرت هانم، تلميذة محمود جلال الدين أفندي الكبير، اسمها بأحرف من نور على جدران غرفتي التي يضيئها القمر والتي راحت تتلألأ بغبار الذهب الناعم الشبيه بما كانت ترشّه أسمى على خطوطها. كنت في حماية خطاطَين، هذا ما خلصت اليه. كانت أسمى تشعر أنها في بيتها عندي في اليالي ليس بعيداً عن بيتها في استافروز من حيث يمكنها تأمل نفس هلال القمر. كانت بكلربكي الجالسة على ضفة البوسفور الآسيوية ذات سمعة جيّدة لدى الخطاطين لا سيما أن الأبجدية وطئت أولاً أرض الضفة الآسيوية.

أشارت اليّ أن أمسك القلم ودلتني على ورقة بحيث رفعتها قليلاً بنفخة هواء. أبعدت الكرسي عن الطاولة كي تجلسني، وضعت المحبرة الى يمين الورقة، موطئة القلم فوقها تماماً. رغبتها في التواصل معي حرّكت فقرات أصابعي. استيقظ القلم فغطّس رأسه في المحبرة ليغتسل وبدأ العمل دون تذمّر. كنت أتعرّف على الحروف

وهي تُمليها عليّ واحداً واحداً فأكتنه الكلمات وأُسرع في كتابتها. كانت تتبرم من استباقي هذا فتتحداني بالتكرار وتتلذذ في كل حرف وترقّص النقاط والحركات الصوتية. تحرص على تحسين عملي فتجلّس قبضتي وتنشّط لي إصبعاً منقبضاً أو ترفع كتفيّ المقوّستين. فالأموات يكونون أحياناً مستبدّين. لم تكن أسمى تتقن تربية أخرى بعد أن أساء أستاذها معاملتها، فلم يكن هذا العنيد المستبدّ راضياً يوماً عمّا تفعله. يجد دائماً ما ينتقده ويعلو وجهه الامتعاض كلما قدمت له مسابقة. وكانت الخطاطة العجوز تعيد للمرة المئة رسم خطّ عامودي لم يجز على رضاه عندما سقطت صريعة. فالله الذي سئم من معاناتها وتنهّدها اختار هذه اللحظة لاستدعائها الى جانبه. حرَفَت بنفَسها الأخير القلم الذي خلّف وراءه خطّاً متعرّجاً. غادرت أسمى هذه الأرض مرعوبة من هذه الرؤية، نادمة لعجزها عن محو هذا الخط الأخير.

في المساء الذي جاءت فيه اليّ صححت حرفاً لمرات عديدة أحدثت معها فجوة في الورقة. تملكتني الحشرية لمعرفة المزيد بحيث قفزت أصابعي فوق المزق لتكمل نسارها. فوقعت عيناي على هذه السطور:

لا يموت الخطاطون أبداً. روحهم تتسكع في أقاصي المعمورة سعياً لاستعادة أدواتهم. يلجأ الله اليهم لإنزال كلمته. الأنبياء يلقونها والخطاطون يخطونها.

أطمح الى الراحة الأبدية لكنه لم يمنحني إياها. يجهل أن الحروف السيئة الرسم تجتاحني، وأن الدوائر غير المكتملة تعذّبني، وأن هندسة الخطّ تتأثر بالهواء الذي في رئتينا. نحن الأموات لا نفَس

لنا. رسم الحروف يمنحنا الهناء والامتلاء، الماوراء لا يسمح لنا باستخدام أيدينا.

تركت الأرض دون أن أذوق طعم التحفة المعصومة أو المثالية التأليف.

ساعديني على نسيان أذيال الحروف ومفاصلها التي تعذّبني حتى في رقادي.

خالفت أسمى عبرت قواعد الماوراء، فما من أحد مخوّل كشف طرائق الاعتزال الأبدي. كنت أتفهّم أكثر زيارات سليم العجوز وتهريجاته وأدواره السحرية. فهو الضحّاك المتوفى لم يشعر بعد بالضجر في نصف الموت الذي يذوقه الخطاطون. بينما كانت أسمى المتعبة من هذه المعاملة الخاصة تتوق للموت الكامل.

لا يهتم الله للأبجدية اللاتينية. نَفَسه الكثيف لا ينزلق فوق هذه الحروف المنفصلة والقصيرة القامة. ويردد الخطاطون القول: «طرد أتاتورك الله من البلاد». فـ«الذئب الرمادي» المعجب بالثقافة الغربية وعدوّ الأميّة بات ممسكاً وحده بزمام السلطة فأصلح الكتابة باستبدالها كما يُستبدل حليب الأم. إلغاء العبارات العربية ـ الفارسية وإحلال الكلمات التركية محلّها. وللغة الجديدة ثمانية حروف صوتية فيما للعربية ثلاثة فقط كما باتت الحروف منفصلة بعضها عن البعض الآخر. لا حركات تصاحب الحروف التي لا تغيّر شكلها وفق موقعها في الجملة. وصرنا نكتب من اليمين الى اليسار. يحكى أن اللغويين طلبوا من أتاتورك خمس سنوات لتحديد أبجدية جديدة لكنه أمهلهم ثلاثة أشهر فقط.

انجرح الخطاطون وكذلك القرآن. مُنع استخدام العربية في المعاملات الرسمية. ما عادت سور القرآن تحفظ في المدارس وما عدنا نتبع الشمس بل بتنا نقيس الزمن وفق نظام اليوم العالمي من أربع وعشرين ساعة.

اختارت اللجنة اللغوية رجالاً ليجوبوا القرى سعياً وراء المفردات التركية، وتطهيراً للغتنا من قاموسها الفارسي ـ العربي، فنبشوا أحشاءنا، استرقوا السمع الى الخلافات المنزلية، أصغوا الى الفلاح ينادي على قطيعه وإلى العاشق يطلب يد خطيبته.

استبدلت أحياناً بعض التعابير العربية القديمة بكلمات فرنسية كان الشبان يتسلّون بإلقائها باللهجة الغربية، حتى أننا بدّلنا شهرتنا فما عدتُ رقت، ابنة نسيب بك او زوجة سيري أنس، بل صرت رقت كونت، شهرة اخترعتها ولا يحملها غيري.

وضعي العائلي لم يشغل كثيراً بال أعضاء الأكاديمية. فالخطاطون يبقون غالباً عازبين مكرّسين حياتهم لله. كنت ممتنة لهم لأنهم لم يجرأوا على إثارة موضوع انفصالي عن سيري بشكل خاص وتربيتي لوحدي ابني البالغ من العمر سبع سنوات. الخطاطون هجينون، لا هم ذكور ولا إناث، ولهذا السبب يحتفظ بهم الله الى جواره. تكبح دعوتهم جماح الرغبة في الإنجاب وسلالات الخطاطين المستمرة عبر القرون هي تلك الناجمة عن زيجات مدبّرة بين تلامذة شباب وبنات المعلّمين. هكذا يبقى الميراث سالماً. بعض المولودين الجدد يحاذون منذ المهد أنبوب الخيزران الذي سيغطّونه لاحقاً في الحبر. وتحسن قبضاتهم البدينة باكراً جداً استخدام القلم. يرتجلون ألعاباً متعددة ويبتكرون ألفة مع الوقت.

دم الخطاطين مختلف عن دم سائر البشر، فهو يتجهّم إذا ما اتّصل بالحبر كما تطيب جروحهم أسرع من غيرهم. يكتب الخطاطون داخل أنفسهم ثم يقدّمون رؤية جزئية من لحمهم الذي سوّدته الأبجدية. يقال إنهم غامضون لكنهم في الواقع محتشمون فقط ويتحفظون على إظهار أجسامهم. كلمة الله لا تُكتب أبداً كما يجب. إذا ماتوا سمعوا فقط صوته المبهم وكلماته العصيّة على الفهم. يقولون إن للأموات آذاناً جيدة بدل العيون.

أي لغة يتكلمها الله؟ ليست اللاتينية بالتأكيد، جزم محسن

أقرب الرفاق إليّ في الأكاديمية. كان الجيل الجديد من الخطاطين يقتحم مهنة غريبة يُمنع عليه فيها قطعاً الكتابة بالعربية. أبنيتنا كانت تُستخدم لتعليم الأبجدية الى سكان الحيّ الذين كانوا يرددون سوياً الحروف التي يتلفّظ بها المدرّس.

أيادينا الفارغة تتعزّى برسم لولبيات نباتية تتخذ أحياناً تدويرة هذا الحرف العربي أو ذاك مخبّأ خلف زرّ ورد ماكر. وإذا تأخر عليّ النعاس كانت أصابعي تلامس برغلة ملاءتي المنشّاة وترسم حتى الإنهاك رباعيات قصيدة قديمة. محسن يقاوم لكن الرغبة كانت قوية فيروح يرسم آيات قرآنية على زجاج غرفته المغشّى بالبخار المتصاعد دون انقطاع من مغلاة فوق الموقد. كنا نتخيّل باستمرار الحروف الممنوعة فوق جدار عار، على سماء مفتوحة أو في صحن فارغ.

وجد معلّمنا اسماعيل حقّي دواءً يسهّل فطامنا. فبعد أن لفت الى سوء حال الوثائق التاريخية المحفوظة في متحف طوب كابي ومكتبات السلاطين العثمانيين القديمة، حصل على موافقة من الجمهورية التركية لإصلاح الأعمال العائدة الى خمسة قرون مضت.

كان علينا ترميم وثائق ملفوفة في أماكن منسية وفكّ تركيبة حبر عمره مئات السنين، أو إعادة تشكيل زخرف الهوامش الذي التهمته سلالات كاملة من الفئران. بان عظم الحروف، والغبار الذي يغشى بعض الأوراق كان يشبه رماد أواني الموتى. حجبت عنّا الأعمال المحفوظة في خزانة القصر لنكتفي بما هو أقل أهمية من مخلفات مكاتب الديوان القديمة. لكن ذلك كان كافياً لإسعادنا. وجاء تأسيس متحف طوب كابي عام 1924 يجنّبها في كل حال أول نكبات الزمن، فيما الآلاف غيرها تنتظر المعاملة نفسها في أقبية

صروح المدينة. هكذا انتقلت اليها مصاحف عديدة وأجزاء من مصاحف وشهادات حجّ محفوظة منذ قرون في مكتبات السلطنة. عثر على بعض منها في الحسودة، مكتبة القديسة صوفيا أو في مختلف الأوقاف التي أمر اتاتورك بإغلاقها، كما في بعض مساجد وأنصبة للمجمعات الدينية الكبيرة.

كنا تتفحصها بخشوع وتأثر من معاينة كل هذا الاجتهاد، محاولين قراءة تواقيع الخطاطين المشهورين في محترفات القصر آنذاك. كانت صعبة قراءة توقيع أحمد قراحصاري، المعلّم الخطاط في عهد السلطان سليمان القانوني والمتوفى عن تسعين عاماً. لم يضعف تقدّمه في السنّ من مهارة يده ودقّة زخارفه. عمد الى تأنيبي بقسوة لفرط ما رآني أجهد في فكّ حروف اسمه. توبيخ باللهجة العثمانية النبيلة. لم يكن هذا الميت العجوز المقرّب من السلطان سليمان يحسن التحدث الى النساء بغير نبرته الآمرة. فكاره النساء المتشدد هذا كان يسخر من جهلي ويعتبر أنه مِن غير الجائز أن أعجز عن قراءة اسمه المكتوب بصمغ أحد كتب الصلاة.

أحياناً كانت الشتائم المبتذلة تفلت من اللهاث الترابي لهذا الشبح العائد. كانت زياراته تختلف عن ظهور سليم العجوز الهزلي او عودة أسمى عبرت هانم المشوّقة. وبما أنه لم يكن يليق بي ردّ الشتائم له تظاهرت بالصمم ولم أعر انتباهاً لتهجّماته. فاختفى بعد أن خاب في جعلي أبكي.

أمزجة الخطاطين تتغيّر، وبدأت أنا أعتاد على شخصياتهم المعقدة وزياراتهم المتعددة.

يدي تفكك الحروف، لكن القلم يفلت من يدي. أطوّعه في الخطّ المستقيم لكنه يلعب دور البهلوان في الخطوط المحدّبة والمقعّرة.

ما إن احتكّ القلم بالورقة حتى انقطعت سلسلة الإشارات بفعل صرير ثاقب. أمسكته بحزم مائلاً بين السبابة والإبهام لكنه رسم قوس دائرة بدفع من قوة خفيّة. استعدتُ وضعيتي الأصلية لأرسم حرف الميم بالخطّ الديواني فارتجفَت تعرّجاتها لتمحّي كالموجة على الرمل تحت أنفاسي بدل أن تجفّ. تصدّع الجزء المائل من قصبتي وتحوّلت غباراً شبيهاً بالزعفران. انغلق غطاء محبرتي دون إذن منّي كأن أدواتي تحاول إيصال رسالة ما اليّ. وكان عليّ البحث في مكان آخر عن سبب تمرّدها. لم تكن التباشير حسنة.

سبحانه وتعالى يعلن عِموماً بهذا الأسلوب وفاة أحد أقارب الخطاط. وعليه هو أن يدرك من المقصود. الأقلام لا تخطئ أبداً بل تتهرّب.

جاء غياب والدي على صورته. أرغمه المرض على ملازمة السرير طوال أشهر. بعد مقاومة طويلة، انحنى هذا التاجر الثري المعتاد على موازين القوى أمام الموت بانصياع تلميذ المدرسة.

نقل سريره فوضعه خلف الباب ليرصد بصورة أفضل عزرائيل، ملاك الموت. انتظره جاحظ العينين ليلة بعد ليلة، وبيده بندقية أطول

من سريره ورثها عن أحد أشقاء جدّه وكان انكشارياً عند السلطان عبد المجيد. لم يتوقع أن يفاجئه الموت في منتصف النهار بينما كان يعوّض أرق إحدى لياليه المضطربة وبالكاد تمكن من مناداتي الى جانبه.

تكلم بصوت خفيض. كان قلقاً من المنحى الذي اتخذته حياتي ويجد مهنة الخطاط غريبة كوني لن أقدر على ممارستها، كما يرى أن زواجي حزين ما لا أتمكن من إتمامه. لم أكن قد التقيت سيري لخمسة أشهر ومع ذلك لم أشعر لحظة بالندم. طلب مني أن أعده بأن «الوضع لن يستمر على هذا المنوال ويجب أن تفعلي شيئاً ولا تدعي نديم يعاني من أبوين يفتقدان النضوج. وعملك، على ماذا يقتصر؟ على كتابة جملة ممنوعة أو على الدعاء الى الله الذي طردوه خارجاً؟».

رأيت وجهه يتجهّم. هل سيكون الله حاضراً ليلتقيه أم أنه هجر هذه البلاد التي تحوّلت علمانية الى درجة أنه ما عاد يستقبل موتاه؟

انتهى حديثنا أمام هذا الجزع. كان يفضل أن يموت في حلب لدى شقيقته العجوز لكن كان عليه اتخاذ التدابير باكراً.

غادرت غرفته على طقطقة مسبحته يسقطها حبة حبة وهو يتلو أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين. خرّ صريعاً عند الحبّة المئة التي لا توجد إلا في الجنّة.

كنّا حوالى الثلاثين شخصاً في جنازته نرسم دائرة حول نعشه متمنّين له الراحة الأبدية. تجار حبوب أثرياء من البلقان ومقدونيا، الجيران وبعض الأصدقاء. حضر سيري ليعزّيني وليرى ابنه بعد غياب خمسة أشهر. سهّل الحداد على والدي هذه المواجهة فقررنا

الطلاق بالتراضي. وقد فاجأني عندما أبلغني أنه حضر الى اسطنبول ليقترح عليّ الشيء نفسه. كان سيري ينوي استئناف حياته مع مراهقة من الأناضول مستعجلة على الزواج. وعد ابنه برؤيته مجدداً عند عودته الى اسطنبول ليتزود بمعدات طبّ الأسنان.

سيري، الوجيه المحترم في قونيا، لم يلتقِ يوماً شبح درويش تائه ولا صلواته المتكررة المتناغمة.

كنا نغادر المقبرة عندما اقترب لإلقاء التحية علينا شخص غامض لا يبدو أنه كان يعرف أحداً من الموجودين. منعه الأسى من تقديم تعازيه بشكل لائق، همس اسمه همساً. كان التقى والدي خلال إقامته في ألبانيا وكان يحب محاورته في أحداث المنطقة السياسية. وكان الاثنان من أنصار الملك زوغ وينتابهما القلق من طموحات إيطاليا الاستعمارية. باتت لقاءاتهما نادرة في الآونة الأخيرة عندما انقطع والدي عن العالم الخارجي لِما أصابه من شلل بسبب الصداع. محمد فخر الدين المولود في تيرانا كان يشبه الديبلوماسيين الغربيين الى درجة أنه راح يتقلّد لهجتهم وثيابهم الأوروبية. كان عضواً في بلاط الملك زوغ ويعطي انطباعاً بأنه مستشار سياسي حضر لتسليم رسالة سرّية بالغة الأهمية. وكانت رحلاته العديدة الى أوروبا، ولا سيما الى فرنسا، قد وفّرت له الفرصة لإكمال معرفته السياسية والاقتصادية والتي كان يعيد تدوير نتف منها خلال محادثاته الصالونية. كان يسحر مستمعيه بتحليلاته وملاحظاته الثاقبة.

حرمه موت والدي من أحد المعجبين به، فسعى لاشعورياً لاستمالة عائلتنا التي فقدت سلطتها الذكورية. فلم يكن ينزل في المدينة مرة إلا ويطيل الزيارة لنا رافضاً على الدوام في البداية

مشاركتنا الغداء الى أن يعود ويقبل دعوتنا الملحاحة. تكاثرت رحلاته بين تيرانا واسطنبول الى درجة اننا وضعنا في تصرّفه غرفة كان يفوح منها عطر الكولونيا المستورد من أوروبا. كان يخرج باكراً، متأففاً من اقتراب موعد الفطور ويؤوب في المساء منهكاً. أحبته العائلة فصار واحداً منّا. وحده نديم الصغير لم يكن يستسيغ تعاظمه الأرستقراطي. بدت لنا نشاطاته غريبة وخطر في بالنا أننا نؤوي جاسوساً جاء يسعى وراء أسرار الدولة. بدى مغترّاً بذاته عندما فاتحناه بشكوكنا فلم يحاول تكذيبها.

في ربيع 1939 أقام أكثر من شهر في بيتنا. كانت ايطاليا قد تسللت الى ألبانيا وصولاً الى الاجتياح الكامل للبلاد فلجأ الملك زوغ الى اليونان مع عائلته. وجد محمد فخرالدين مأوى له عندنا، في منأى عن الحاجة والحرب.

بسرعة تغيّر وضعه في بيتنا. كانت غرفتانا تنفتحان إحداهما على الأخرى. مع هبوط الليل يتحول الجاسوس الى عاشق سرّي. كان محمد يتقن هذا التخفّي وصولاً الى اليوم الذي أعلن فيه طلاقي. في لهفته للزواج وحمل الجنسية التركية، رشا بلدية بكلربكي لتسجيل زواجنا في أسرع وقت ممكن. رمقتنا صورة اتاتورك بنظرة تأنيب. اتخذ محمد شاهداً له مالك البالي المجاور ووقفت لي شاهدة أختي الصغرى خاتم.

كان زوجي الجديد يختار دائماً تواريخ ذات دلالة لإظهار عاطفته. فاتحني لأول مرة بحبّه يوم وفاة أتاتورك، في العاشر من تشرين الثاني 1938، وولد ابننا أحمد نورالله في 3 ايلول 1939، يوم أعلنت إنكلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا. بعد أن قُضي تماماً

على طموحاته السياسية صار يحب إيجاد تواصل رمزي بين حياته والتاريخ فيفتتن لكونه أبصر النور في الثالث من نيسان 1905، يوم اختار أحد النيازك مساراً قريباً من الكرة الأرضية.

كنّا أرضاً مثالية تؤويه وكنا مضيفين ودودين. حافظت بلادنا على حياد تام خلال الحرب فكنا نقيم في بلد معلق بعيد عن النزاعات، لا يأتي حراكاً حتى زلزال 27 كانون الأول 1939 الذي بلغ ثماني درجات على مقياس ريختر وأوقع ثلاثين ألف قتيل مزعزعاً تركيا كلها. زلزال يوازي القصف الجويّ تدميراً... عقاب من جوف الأرض وقع أثناء حملي وسيكون له تأثير على مصير ابني الثاني.

تأرجح نور بين بلد وبلد فلم يجد في أي منها ضالته. والغريب أن البلد الوحيد الذي أسعده، فرنسا، تعرّض يوم ولادته للقصف من ثلاثمائة طائرة المانية حتى استسلامه الكامل في 14 حزيران 1940، يوم دخلت جيوش هتلر باريس.

كان العدو على حدودنا. في السادس من نيسان 1941، هاجمت ألمانيا كلاً من يوغوسلافيا واليونان. لم تغامر قاذفاتها أبعد من ذلك وكنا أحياناً نسمع الدوريات الألمانية تعود أدراجها.

أضرّت الحرب باقتصاد البلاد بالرغم من حيادنا. تصلّب النظام من جديد وعاد الإسلام الى الظهور في الحياة السياسية. فالمعروف أن الديانات تنبعث في زمن الحرب. كان العالم بأكمله يحترق وكانت تصل الى آذاننا شائعات المجازر والإبادات. كانت الصلاة درعنا الوحيد.

في السابع والعشرين من رمضان، ليلة القدر التي يحدد فيها مصير كل الكائنات، توجهت البلاد الى الله راجية إياه العودة الى الأرض. أعاد الرجال إخراج سجادات الصلاة وراحت النساء يرددن البسملة طوال النهار. دعت البرامج الإذاعية الدينية الى الصلاة وشجعت الحجّ الى مكة. عادت المهن الصغيرة وعاد الباعة المتجوّلون يملأون الشوارع بوقع حوافر دوابّهم. المدارس الدينية فتحت من جديد شبابيكها الخشبية الغليظة. سكن الورع الشوارع والبيوت فيما لا تزال ذكرى أتاتورك العلمانية مسيطرة على العقول.

أيقظتُ أدواتي من سباتها العميق، محبرة سليم العجوز استعادت مكانها على طاولتي. أصابعي المنتفخة منذ فترة الحمل كانت تتمسك أفضل بالقلم. ركلات الطفل تحرف خطوطي وتحوّل حروفي الى سيوف مشحوذة. لم تكن النتيجة سيئة بل إن الأب قرأ فيها استعدادات فنيّة لدى ابنه. لكن الولد فضّل فيما بعد مدرّجات الموسيقى في دفاتر الألحان على الكتابات الثقيلة لتخطيطات أمه التي لا تنبعث منها الموسيقى.

كانت أمي تنتظر بلهفة حفيدها الثاني. لم نجرؤ على اختيار اسم له خشية أن يخطفه الشيطان منا. بحسب قول جارتنا يتلقى الجنين القرارات الإلهية الأربعة في الأشهر الأولى من الحمل: الأكل، مدة

الحياة، السعادة والتعاسة. لكن محمد لم يكن يؤمن بذلك كله بل يحتقر الخرافات وينتزع التعويذات التي كنت أعلّقها على السرير.

ولد نورالله صبيحة يوم من أيام نيسان بعد ليلة من الآلام. استحوذَت أمي على حبل الصرّة ودفنَته تحت إحدى أشجار الحديقة. رأسه كبير، سيكون الطفل ذكياً، قالت القابلة. والده لم يكن يخفي اعتزازه. صراخ ابنه دليل حيوية، كان يسمّيه «النور الصغير».

مع هبوط الليل كان يبعدنا ويجلس الى جانبه يحكي له تاريخ رجال بلاده العظام. قصة محمد علي، المغامر وتاجر التبغ السابق الذي أصبح قائداً للقوات الألبانية في الجيش التركي، أو قصة إسكندر بك الثائر. كان خطابه الحماسي يصيب الطفل بالارتعاد فكنا نطرده، أمي وأنا، من الغرفة لتهدئة الصغير عن البكاء ولنغنّي له تهويدة. كان والده يردّ في اليوم التالي بأخبار تيمورلنك الكبير أو «الرجل الحديدي الأعرج» الذي كان يبني أهراماً من الجماجم. كان يتبجح بهذه المجازر وعينه تلمع والزبد يرغي في طرفي شفتيه.

يستغل محمد رقاد ابنه ليعود خلسة الى الغرفة لينتقد سياسة أتاتورك. كان مستنكراً لتحرر المرأة ولا يصدّق إعطاءها حقّ الاقتراع دون أن ينسى احتمال انتخابها. كان يهمهم في العتمة ولا محدّث له سوى طفل نائم.

إضطرب نديم بسبب ولادة أخيه، فراح يتحاشى وجوده مفضلاً الصيد برفقة مصطفى العجوز الأبكم منذ اليوم الذي اقتلع له فيه طبيب أسنان سيىء في بكلربكي فكّه مع أسنانه. كانا ينتظران الطريدة ساعات طويلة على إيقاع الأمواج المتعاظمة عند مرور البواخر الكبيرة القادمة من البحر الأسود. لم يكن أحد منا

يطيق مناجاة زوجي، والسلحفاة فضّلت الغرق في البركة على سماع خطبه. أحزننا انتحارها.

كنا على الغداء نفتح النقاش في أي موضوع تهرباً من انتقاداته اللاذعة. كان ضدنا، ضدنا جميعاً، يدين منع ارتداء الحجاب وتعدد الزيجات. وكان نومه على صورة نهاراته، يجادل وعيناه مغمضتان، يقول من الأفكار ما يمسك نفسه عن قوله في النهار ويعدّ انتقاماً دنيئاً بحق نساء العائلة.

كان محمد يجد نفسه دائماً وحيداً. يتهرّب الجميع منه، حتى لال الشابة التي كانت تكوي غسيل البيت. تدّعي البكم والصمم تفادياً لسماع خطبه. لكن حتى أذنان صمّاوان ما كانتا لتعيقاه. ذات يوم تقاضت لال أتعابها وذهبت ولم تعد.

بات الصمت سلعة نادرة في المنزل. وكنت أستفيد من الليل كي أتموّن سكوتاً ولأعمل بالرغم من تحرك الجدران وصرير الأرضية وتنفّس المدخنة مع الريح. صار اليالي عتيقاً ولم تكن أمي قادرة على إصلاحه وكذلك زوجي الذي لا يكنّ سوى الاحتقار لمن يعملون كسباً لقوتهم. كان البوسفور يدكّ أساساتنا شيئاً فشيئاً من سنوات، زبده يجعل زجاج نوافذنا أكمد، وأمي تشيخ مع تداعي اليالي. هي الحنونة الى الماضي وجدت في النظافة حليفة لحزنها.

أي غرض كان يغرقها في صمت خاشع. فتسترجع حياتها عند رؤية قارورة عطر قديمة من بيكوز أو سماط صغير طرّزته في السادسة عشرة من عمرها أو مناديل لوالدي نشّتها ألف مرة.

كانت تقول إن التلميع بحنق يجعل ذكرياتها أكثر وضوحاً.

تتذكر سنوات شبابها عندما كانت ابنة المدينة الثرية صاحبة

الجمال الضارب صيته الى القرى المجاورة لبكلربكي.

صرخات نور الله تعيدها بسرعة الى الواقع. يريد أن يلمس كل شيء ويتسلى بتخريب أواني غرفة الاستقبال المزخرفة. لم تفلت منه سوى مجموعة خزف إزنيق التي أهداها السلطان سليم الثالث الى محظيته، عمة والدي وزينة حريمه. مجموعة فخمة من الاطباق والبرادق والمشربات تلتمع مع أنوار المغيب. وكانت أمي وضعت فوق الرفّ نفسه (البراءات المخطوطة) في ديوان السلطان وفيها بالأحرف الكاملة اسم والدها المكلّف جباية الضرائب ونقلها الى الخزانة. كانت فخورة بشكل خاص بهذه الوثيقة التي توقفت عن تعليقها على الجدار منذ وصل أتاتورك الى السلطة.

أذكر وأنا صغيرة كيف كنت أتسلى بإعادة رسم اسم السلطان المتشابك الأحرف مضافاً اليه شهرته وصفة «المنصور دائماً». كنت أتخيّله متكرّشاً جالساً القرفصاء على عرشه، عمامته مرصّعة بماسة كبيرة وذراعاه متهدلان الى جهتي المسندين. كان نسخ طغراء السلطان تمريني المفضّل وقد حذرني والدي المتوجس من التزوير من هذه العادة بالرغم من دقة نسخي القادرة على خداع العين الدّربة. كان يفضّل تشجيعي على نقل نماذج «الأمواج والصخور» على حافة صحون السيراميك أو غيوم (تشي) الشهيرة حبيبة الصينيين. وكنت مجتهدة بحيث أستخدم أستاذة رسم، عانس من بيبيك وهي قرية صغيرة على الضفة الغربية. وكان والدي يصطحبها في مجيئها وعودتها لأنها لم تكن ترتاح لمرتادي مراكب النقل. كانت فوسم التي أقامت ثلاثة أعوام في فلورنسا من أنصار المانيرا* الإيطالي المتحمسين،

---

* الاسلوب.

وتقدّس بيلليني تقديساً محموماً. كان الضوء في البندقية شبيهاً، في نظرها، بالقسطنطينية القديمة، فالأدرياتيكي ابن عمّ البوسفور.

كانت تسهو فتغطّ ريشتها في شاي التفاح وتشرب ماء التنظيف المتعددي الألوان.

تركز في دروسها على العلاقة بين الفنّ والحروب التي خاضها السلاطين الدمويون. ألم يغنِ سليم الأول، عند نهب تبريز، مجموعاته من البورسلين الصيني بقطع تأثر بها فنانو النقاشان*؟ وأسرى الحرب الإيرانيون من بلاط هراة ألم يحملوا معهم النماذج التيمورية والصفوية التي استعادتها فيما بعد أيدينا الأناضولية؟ كانت قوسم شغوفة بالرسوم الصينية تنسخها في أحد دفاترها. وكانت كل صفحة مخصصة لموضوع: سعفة النخل الساز**، أوراق الهاتاي***، أوراق الهانساري**** أو زخرفة السينتيماني***** التي كنت أنسخها بأدنى التفاصيل، نباتات من غابات على تخوم آسيا الوسطى والصين تخفي وجوهاً ضاحكة وصخوراً على هيئة بشر يتأملون المشهد بعيونهم الواسعة. كانت لنور الله ابن الستين أذواقه المحددة. يتعرف على الزنبق المنمنم فيلمسه بإصبعه كأنه يريد توريقه. ثم كان يلقي تلك النظرة التأملية على مكّة المرسومة في مربّع من السيراميك. يسأل المكعّب المزنّر بالذهب. كان والده أخبره أن الكعبة تؤوي الحجر الأسود لخطايا البشر وهم يدورون حوله كما

* محترف سلطاني.

** أسلوب زخرفي مستوحى من آسيا الوسطى.

*** أسلوب زخرفي في رسم النبات مستوحى من إقليم صيني يحمل اسم هاتاي.

**** أوراق دقيقة مسننة الحروف.

***** زخرفة من ثلاثة دراهم وخطوط متماوجة تسمى «شفاه بوذا».

تدور الأرض حول الشمس. لكن نور كان يفضّل رسومي على الشروحات وينظر مسحوراً الى الحجر بقطر ثلاثين سنتيمتراً والملوّن بالأسود وبلمسات حمراء وصفراء. وكان شاكراً لي في كل مرة أوفّر عليه فيها المواعظ الأبوية الطويلة.

كانت مكّة في عيون الطفل مكاناً للتسلية حيث الجمهور يدور حول دمية تشبه المهرج (الكاراكوز).

عشنا الحرب بالوكالة عندما كانت الإذاعة تخبرنا بالاختراقات الألمانية الأخيرة وبالفظائع التي انكشفت بعد كل سنوات الصمت.

وكان زوجي المتزيي دائماً بأجمل بزّاته يتسكّع على ضفاف البوسفور وهو يدخّن غليونه بشراهة. قضت الحرب على طموحاته وأنضبت بلاغته وأتلفت رباطنا المتداعي أصلاً. وحدها ابتسامات طفلنا كانت تأتينا بما يشبه الانسجام.

كانت أمي العجوز ترى بأم العين صيغتنا تذوب بينما محمد يرفض المراكز التي تُعرض عليه إذ يعتبر نفسه أرفع شأناً. فأشاح بوجهه عن وظيفة حافظ مكتبة اسطنبول وعن مساعد في التنظيم المدني للمدينة. وكانت أفكاره السياسية تغذّي هذيانه العُظامي الى درجة وضعت فيها العائلة بتصرفه جناحاً كاملاً من البيت تفادياً لسماع توقّعاته المتشائمة وتحذيراته الرؤيوية.

احتوينا كل هذا التوتر حتى جاء ذلك اليوم اللعين... الذي كنت أكتب فيه الآيات القرآنية بالخط الغباري عندما دخل عليّ محمد دون أن يقرع الباب ليدلق محبرتي على الأوراق المربّعة، أمسك بدواة سليم العجوز ورماها من نافذة المحترف ثم خرج دون أن ينبس

ببنت شفة. عبثاً حاول نديم اصطياد الدواة، ابتلعها البوسفور.

لا بدّ أن الضجة أيقظت سليم الذي فضّل الوحل على تراب قبره الجاف فاستعاد ملكه ولم نعثر من بعدها على المقلمة.

كنت أتخيل المحبرة والأقلام وقد غلفها الوحل تؤرجحها الأمواج فينعصر قلبي.

عاد البيت فجأة الى سكوته. لم يعد يُسمع سوى صوت نور يتلو الأبجدية. كان والده يقول إنه ينتظر نهاية الحرب ليغادر هذه البلاد الجاهلة وعائلة المخبولين هذه. كنا نحن أيضاً نأمل انتهاء النزاع للعودة سريعاً الى بيتنا القديم الوحيد الذي يؤمّن لنا الراحة والذي شطره خطّ التماس نصفين.

لم يدفعه استسلام ألمانيا عام 1945 الى المغادرة. هوسه بربط حياته بأحداث العالم الجسام جعله ينتظر حتى السادس من آب، يوم قررت الولايات المتحدة إسقاط القنبلة فوق هيروشيما. انفجرت القنبلة خلال خمس وأربعين ثانية. لم يلزم زوجي أكثر من ذلك للخروج نهائياً من حياتنا. قبل بمنصب مدير معمل التبغ في بيروت شرط اصطحاب ابنه معه. ما زلت أرى نور يتبع والده وهو يجهد تحت عبء حقيبته المحشوة عن آخرها بجنوده الصغار المصنوعين من الرصاص وبأصدافه الى جانب ثيابه. اعتقد أنه سيعود قريباً فنسي تقبيلي. حبست دموعي. كنت أبكي في داخلي دون أدنى شكوى أيضاً. اكفهرّت السماء من رحيل نوري الصغير. ما أزال أذكر كيف كنا نقف نحن الثلاثة، أمي وأختي وأنا، عند العتبة وهو يلوّح لنا بيده الصغيرة، سعيداً في سفرته.

وكان سرّع في رحيله حادث أقلقنا وقع في اليوم السابق. أتردد

في التحدث عنه. ربما أكشف عنه ذات يوم عندما يكون الخجل من الفضيحة أقل إيلاماً.

بيروت، آب 1957

أمي العزيزة،

لا يمكن الركون الى البريد اللبناني. فآمل أن تصلك هذه الرسالة. وافق والدي على إعطائي عنوانك. ذاكرته تخونه وقد بذل جهداً فائقاً كي يتذكره. يبدو له اسمك بعيداً جداً، كأنه قادم من حياة أخرى. لم يحفظ أي صورة لك، كيف تبدو أمي؟ ألبوماتنا الموشّاة بالصور المجتزأة، غالباً ما يظهر فيها والدي وقد حلّ وجهه محل وجهك.

ليس ثرثاراً، يتفادى الأسئلة المتعلقة بك. انه مدير في معمل التبغ وأرسلني لدى اليسوعيين، «أفضل تربية في المنطقة» كما يكرر القول. هل صحيح أني مسلم؟ ينحني أصدقائي عند رؤيتي كأنهم في حضرة شخص من سلالة النبي.

الحياة في بيروت لذيذة لكن فرنسا توفّر لي إمكانيات عمل أفضل. تسجلت في الطبّ في باريس والدروس تبدأ في تشرين الأول المقبل.

أود رؤيتك من جديد لكن لا وقت لديّ. هل تتعرفين عليّ بعد كل تلك السنوات؟ رائحة تبغ والدي لم تمح أبخرة البوسفور المالحة. أما تزال منحوتات الدراويش الصغيرة في مكتبتك؟ كسرت واحدة منها وأنا صغير. هل أصلحتها؟

هل تزوّج نديم؟

أقبلك بحنان،

جان

ربما قرأت هذه الرسالة مئة مرة وأنا أتأمل بإعجاب خطوطها الفائقة الإتقان وتدويرات حروفها المتكلّفة وطراوة علامات الوقف فيها. كتبها ابني بسرعة دون أن يتوقف ملياً عند محتواها. أراد معاودة الاتصال دون شكليات. حيّرني توقيعه باسم مسيحي. كان والده قرر اختزال اسمه المسلم تسهيلاً لاندماجهما في بلد الاستقبال المسمّى «سويسرا الشرق». هو نفسه اتخذ اسم بيار في آخر المطاف. كان يرتاد المجتمع اللبناني الراقي ويُكثر من السهرات الاجتماعية وعطل نهاية الأسبوع في فاريا بينما كان نور يتدرب على ترجمة «الإنياذة» لفيرجيل، ويتابع دروس التعليم الديني على يد الأب مطران ليوافق على التقدم للمناولة الأولى كي يتشبّه بالصبيان الآخرين. لا بد أنه شعر بمرارة طعم القربان مقارنة مع كعك الزعتر الذي كان يصلنا الى باب اليالي كل صباح. مضغ جسد المسيح وفمه مفتوح يزعجه التصاقه بحنكه ويفاجئه الشعور بذوبان الجسد. ربط له الأب مطران ساعدة بيضاء وأهداه نسخة من الأناجيل المقدسة. وصلتني هذه التفاصيل من قبل عمتي مريم وهي تركية مقيمة في سوريا تكتب لي رسالة في الشهر.

ابتدع والد نور لنفسه منصب مستشار سياسي، متطوع سابق في المقاومة الألبانية ومن بعدها مساعد مقرّب من عصمت اينونو: كان يدّعي بأنه الموجّه الخفي لكبار هذا العالم. اكتسب شعبية بات معها بسرعة شخصاً لا غنى عنه، فكان يتجاور مع أفضل موائد البلاد

ويغازل نساء ضيوفه. وعلى سؤال «هل أنت متزوج؟»، كان، بسرعة خاطره التي لا تخطىء، يُحضر الإجابات الملائمة والمتغنية بحريته وبجمال نساء البلاد. وكانت وظيفته في إدارة معمل التبغ تؤمن له معيشة بلا همّ وأفضل تعليم لابنه وأجمل الغلايين المستوردة من الخارج خصوصاً من إنكلترا وفرنسا. حصل على اكثر من سبعين منها وعلى عشرين بذلة وما يقارب المئة ربطة عنق جمعها بشغف.

كان الأب مطران ينظر بعين الريبة الى هذا «المتأنق» الآتي لاصطحاب ابنه بمناسبة العطلة الكبيرة وهو يقود سيارته الكابريوله بلونها اللؤلؤي الرمادي. وقد شوهدا في الصيف يجوبان البلاد، من منتجع بحري الى منتجع بحري ومن يخت الى يخت يقدّمان الولائم الوفيرة، والنساء ذوات النظارات السوداء يدخنّ السجائر ذات الأعقاب المذهبة دون أن يضعن رجلاً في الماء. كان بيار يلقى التقدير بسبب فصاحته وشهيته للحياة فذاع صيته في المجتمع اللبناني الراقي. نور يلعب مع الصغار دون أن يفوّت شيئاً من محادثات الكبار. يلتقط نظرات الخيانة الزوجية والجاذبية السريّة ويعرف سلفاً أي نوع من النساء سوف يروق لوالده الذي كان يفضّلهن متزوجات ومتعطشات للثروة. غراميات لا تعمّر لأن تلك «السيدات مكلفات جداً» كما اشتكى مرة أمام ابنه. كان نور يدّعي عدم الفهم مفضلاً طرح أسئلة حول والدته وكيف تبدو. لكن محاولاته كانت تصطدم دائماً بأجوبة احتقار بحق التركيات، «نساء خطيرات» كما يقول. مع أنه لم يكن في حوزة نور صورة فوتوغرافية لي إلا أنه كان يعرفني مختلفة تماماً عن هؤلاء اللبنانيات المتكلفات واللواتي يخفين خلف لطافتهن حسداً أعمى. ولم تكن طرائد والده الصيفية تروق له. في

كل حال، لم يكن هذا الأخير يُكمل استعراضه الإغرائي لما يلقاه من نظرة احتقار يذلّه بها ابنه. كان حكم نور عليه قاسياً.

ضجر بيار من فريساته الجميلات فالتفت ناحية الوريثات الثريات من ذوات الجمال العادي. وسرعان ما تمكن هذا الغاوي الأجنبي من رمي سحره على جانين، ابنة أكبر منتجي الإسمنت في البلاد. فكانت لا تفوّت مناسبة إلاّ وتدعوه فيها الى منزلهم في صوفر بالرغم من تحفّظ والدها. حاز إعجاب العائلة كلها وصولاً الى الوالد الذي راح يدعوه الى غرفة مخصصة للمحادثة بين الرجال يدخنان فيها السيجار. بعد أشهر أثمرت جهوده فكان الحصاد وفيراً كما المهر. طلب بيار يد الفتاة بمباركة الجميع ناسياً أن زواجه بامرأته التركية ما يزال قائماً. «لم أتزوج من قبل، ليس لدي أولاد، هذه هي العروس المشتهاة لتأسيس عائلة كبيرة» هذا ما قاله عشية طلب الزواج. جانين قادرة أن تؤمن له حياة زاهرة بين معمل الإسمنت والمنزل الصيفي والشقة المطلة على البحر في بيروت. طعم الربح تغلّب لديه على ابنه فنسيه في جزء خامد من ذاكرته. في النهاية كان دوره كوالد يقتصر على زيارة فصلية الى المدرسة الداخلية. ومع مستوى المعيشة الذي اكتسبه سيتمكن من تأمين أفضل دراسة له في فرنسا.

انطلت الخدعة لبضعة أسابيع حتى اليوم الذي فضّت فيه العروس العتيدة إحدى الرسائل. أربكتها فقرأتْها لوالدها الذي لم يجد أقرب الى يده من قطّاعة الورق ينهال بها على «المشرقي» الذي خدعهم.

15 حزيران 1955

والدي،

ليس لدي أخبار عنك. هل يشغلك العمل الى هذا الحدّ؟ لم تحضر الى عيد المدرسة. لعبت دور الدكتور كنوك. صفقوا لي كثيراً. التقط الأب أنطوان صوراً للمسرحية سأريك إياها. ذكّرني الأب مطران أنك لم تحضر أيضاً يوم خميس الصعود. وقد همس في أذني: «أسوأ الأيتام من أهلهم أحياء يرزقون». لا أريد تصديق ذلك وأنا بانتظارك في أول أيام العطلة. أتحرق للإقامة في بيت حقيقي والانتماء الى عائلة حقيقية.

العطلة الكبرى تبدأ يوم السبت المقبل، سأكون واقفاً أمام ردهة الاستقبال. لا تنسني.

ابنك،

نور

لم تجد الخطيبة الخائبة عزاء إلاّ بين ذراعي والدها. ستكون هذه الكذبة مكلفة على مرتكبها ووعد الرجل ابنته بأنه سينهي المسألة قبل حلول الظلام.

حضر رجلان شديدا البأس الى معمل التبغ بعد الظهر بقليل وطلبوا مقابلة المدير. استلقى رجلا والد جانين، علي ومصطفى، وكأن المفاوضات ستطول. جاء كلامهما عجولاً وناجزاً. كشف علي عن أوامر المعلّم: ممنوع عليه السعي لرؤية الفتاة أو الاقتراب من المنزل. في المقابل لن يفشوا أسباب إلغاء الزواج. راح علي يتباطأ في الكلام ليصير أكثر توعّداً. أشار بإصبعه الى الخطيب السابق ونصحه

باحترام الاتفاق وإلاّ...

من ذهوله لم يتسنّ له الوقت للإجابة. وعلا وجهه الشحوب لدى رؤيته رسالة ابنه وصور خطوبته ممزقة ومرمية أرضاً.

حضر بيار يوم السبت التالي قبل ساعتين من الموعد لاصطحاب ابنه. لم يصدّق الأب مطران ما رآه. هرع نور نحو والده، سرق منه قبعته ودلف الى السيارة. جلس وراء مقود السائق وراح يتباهى أمام رفاقه وهو يضغط على المنبّه.

أمضيا الصيف بصحبة الرجال، بعيداً عن الاجتماعيات. لم يذكر بيار أبداً مسألة تعطيل زواجه ولا الرسالة ولا الشائعات التي انطلقت في المدينة. كان نور يفاجىء أحياناً بعض الوشوشات والنظرات المريبة التي كان والده يقابلها بالابتسام.

كان صيفاً أشبه بالحلم. والده عاد اليه ويوجه اليه كلام البالغين.

ثم قال له ذات ليلة: «هذه البلاد ليست لنا».

الصفحة تحت يدي ملساء. فرشت محبرتي بنسيج من الإسفنج الطبيعي تفادياً لإشباع القلم بالحبر. لم يعد أمامي سوى بَري القصبة. عقدتا الضمّة مقطعان يسمحان لي بالإمساك بها. مديتي تشذّب أليافها، تداعب بطنها، صدرها وظهرها. أحزّ الرأس وأفلقه كي يمسك الحبر. أضع مرفقيّ على الورقة وأغطّ الجذع في السائل مرخية عضلاتي. أغطّ قلمي من جديد، يتغذّى الجذع بالحبر وأنا بالهواء. يحدث لي أن أقلب الأدوار، لكن الخطاطين يعرفون أن الحبر ليس بحاجة للتنفس. صرير القصب لا يخيفني. حركاتي تمتد الى ما لانهاية. أقتصد في الفسحة، الخط الأساسي مستقيم بالرغم من الحروف المتداخلة. الأشكال تستريح في داخلي. أتوقف عند كل وصلة لأستعيد الخطّ حيث تسمّر، وأريح السنّ حيث يرتفع. خطّي أسود قاتم. أتجاهل صراخ القصب ولا أهتم سوى للذّتي. أعلّق الحركة ما إن يجرح السنّ الورقة. التوقف الدوري يحبطني، أودّ لو كنت حبراً لأموّن قلمي بلا انقطاع، فيتحوّل لهاثي نشّافاً وجلدتي غشاءً من الورق اللماع. الرغبة في كتابة رسالة تضع حداً لتعبي.

بكلربكي، آب 1957

ابني العزيز،

ملأتني رسالتك فرحاً. تشاجرت أمي وأختي على قراءتها. ساعي البريد ذرّ الفتنة في البيت. رحنا نتخيّل رنّة صوتك وهيئتك وأنت تركّز في الكتابة. «كتابة رجل علم» قالت إيفليا، خبيرة الخطوط المجرّبة. فالانطلاقة العامودية للحروف الصامتة دليل طموح، واتساع هوامشك يكشف عن سخاء كبير.

لم يعد لهذه الرسالة من سرّ تُخفيه علينا باستثناء كاتبها. عند رحيلك كنت صبياً صغيراً.

كنت أتسقّط أخبارك بفضل عمتي مريم التي غالباً ما كانت تزورك في مدرستك الداخلية خلال إقاماتها في بيروت. التقطَت لك صوراً ذات مرة وأنا صففتها بعناية في غرفتي. عند عودتها الى حلب كانت تكتب لي رسائل طويلة تصفك فيها بأدنى التفاصيل. هل تتذكر الصورة التي التقطتها لك عند مدخل قاعة الطعام؟ إنها متربّعة على منضدة الصالون مع خصلة من شعرك قصّتها خاتم يوم عيد ميلادك الرابع.

رشيدة وبالرغم من سنواتها الست والثمانين، لم تنس خطواتك الأولى وتتذكر أنها تركتك جالساً على كرسي الى جانب سلّة الغسيل لتجدك واقفاً فوق الجسر الخشبي جاهزاً للغطس في البوسفور.

هل تذكر اليالي؟ كنت تسميه «السلحفاة الكبيرة».

نديم متلهف لملاقاة شقيقه الأصغر.

ننتظرك

أقبلك بحنان.

والدتك رقّت

جُمِعَتْ رسائل نور في ملف بمتناول اليد وغالباً ما توالت قراءاتها. غيّرت هذه المراسلة من طبيعة عملي فبتّ أجرؤ على تشكيلات غريبة وأتجاوز هيمنة السطر والانصياع للزخرف. بعد أن أكون تشبّعت من تمارين تلامذتي وتصحيح امتحاناتهم، أتسلى بخلط الحروف وتركيب عظامها بعضها فوق البعض الآخر. أزرع الخناجر في أعضائها فتتلوث ورقتي بنثار من الدم. أحياناً يتعب الخط فيرتخي لينشدّ كالخيط الممدود حتى الانقطاع. أحياناً أخرى، تبدو لي الفوضى متناسقة وعذاب الدلالة مستحباً للنظر.

قراءة نور تمنحني قوة الاستمرار والإبداع.

إذا تأخرت الرسالة، إذا مضى شهر دون أن تصلني أخباره، أعود الى تفاهتي. أسرّت لي يدي باعتراف قبل أيام، فهي تفضل هذياني على التشكيل التقليدي وتشجعني على المضي في هذا النهج.

محسن أكثر تشكيكاً. لا يعرف في أي اتجاه عليه قراءة تآليفي وتجحظ عيناه المستديرتان عند رؤية حرف مبتور أو خط متدرّج نزولاً. يقول إن ألواني مقلقة، آتية من الجحيم.

ما عدت قادرة على العمل كما في السابق، أزهاري برائحة التعفّن وزخارفي المذهّبة تنزف دون كلل. تغيّر العالم والإيماءة حلّت محل الحرف. محسن يحذّرني: أكاديمية الفنون الجميلة ترفض الابتداع. يقول إنهم يمتدحون الجمالية وأنتِ تفضّلين الواقعية والحرية. الإنجاز أبديّ عندما تكون الحركة غير مرئية.

باريس، تشرين الثاني1957

أمي العزيزة،

أخشى أن لا أتمكن من لقائك. ها أنا أقيم في غرفة صغيرة في شارع سولفيرينو. الحياة في باريس مكلفة ولا أملك الوسائل للسفر الى البعيد. بقي والدي في لبنان ولن ينتهي من وظيفته قبل العام المقبل. يجري نهر السين على بعد مئة متر من حيث أسكن وغالباً ما أتنزّه على أرصفة النهر عند هبوط الظلام. الكلية التي أدرس فيها تبعد كيلومترين عن المبنى الجميل الذي أقيم فيه وهو من الحجر المصقول محفورة على واجهته أسماء علماء كبار. أتشوّق الى بدء الدروس...

لماذا لا تأتي لعندي؟ غرفتي واسعة تتسع لشخصين. متحف اللوفر في الجهة الأخرى من الجسر. يمكنك أن تشاهدي فيها مجموعة التحف العثمانية. هنالك العديد من الأمكنة تستأهل الزيارة وأودّ اكتشاف هذه الروائع برفقتك.

أقبّلك.

نور

بكلربكي، تشرين الثاني 1957

ابني العزيز،

أنا مدعوة الى لشبونة في شهر شباط المقبل لترميم منمنمات عائدة الى مؤسسة غولبانكيان، ويمكنني في طريق العودة التعريج على باريس لرؤيتك. أمين سر المؤسسة طلب المساعدة من أكاديمية الفنون الجميلة في اسطنبول من أجل ترميم صفحة من مخطوطة تعود الى القرن الخامس عشر، جزء من رواية ليلى والمجنون الشبيهة

بروميو وجوليت الغربية. تركيب الصفحة والألوان والزخرفة تتبع نموذج مدرسة شيراز. يداي متلهفتان لاستعادة الهوامش وتجديد الغلاف المقوّى وتطرية الألوان.

فكرة زيارة باريس برفقتك تسرّني. أتوق الى اكتشاف قصائد باقي، الشهير، في مدح السلطان سليمان (القانوني) والمحفوظة في المكتبة الوطنية، وكذلك رسوم شاه كولو الكبير. في باريس هناك الكثير لأتأمله بناظريّ. هل رأيت الرسالة الموجهة من سليمان (القانوني) الى فرنسوا الأول؟ يقال إنه من الصعب معاينتها... ستحاول أكاديمية اسطنبول الحصول على إذن خاص لي.

سأستعلم ابتداء من الغد لدى محطة قطارات اسطنبول وأبلغك.

على أمل اللقاء القريب.

رفّت

رشيدة وخاتم تحسدانني. تودّان لو تندسّان في حقائبي وتتحولان فأرتين كي تتمكنا من رؤيته ولو للحظة. وعدتهنّ بصور لنور، صور جانبية، للوجه وحتى للظهر. كتب نديم له رسالة منعني من فتحها. تقول رشيدة إنه دسّ فيها صورة أجمل فتاة في بكلربكي. يجب رؤية نور يتزوج من فتاة من عندنا. التركيات يبقين عذارى حتى الزواج.

بطاقات سفري على الطاولة الى جانبي، أنظر اليها كل ليلة قبل أن أطفئ الضوء. هل يتعرّف عليّ نور بعد كل تلك السنوات؟ أصبحت عجوزاً لا تشبه في شيء الشابة التي تركها. هل أتعرّف عليه أنا؟ الصورة الوحيدة التي استلمتها قبل شهرين تمثله جانبياً مقابل دير سينانك. نوري يشبه سائر الزوار.

اجتزت خمسة بلدان كي أصل الى مقصدي. تبدو لشبونه قائمة في طرف العالم.

أعضاء مؤسسة غولبانكيان ودودون، وما يملكونه من أعمال فنية إسلامية فاق توقعاتي. وتُطرح فكرة تنظيم مباراة هندسية لبناء متحف جديد باستقبال هذه التحف. يظهر بعض التلف على المنمنمات وهي مرصوفة في خزانات حديدية بمنأى عن الضوء. أفكّر بالفنانين الذين أبدعو هذه الخطوط قبل خمسة قرون. أتخيّلهم متربّعين، معممين، يلوّنون برقّة. وجوههم مستديرة، عيونهم لوزية لا يميزهم عن النساء سوى تلك اللحى الدقيقة السوداء. عدّتهم أتلفها الصباغ وأيديهم تآكلت من فرط جرشها للأكسيد المعدني: أزرق الكوبلت، أصفر المنغنيز والأخضر الحاصل من مزيج الكروم والنحاس. ينضحون عرقاً وينفضون قمصانهم من وقت لآخر لتهوئة آباطهم المبللة. شبّان مراهقون يغيّرون لهم الماء، ينظّفون الريش ويمزجون الألوان. إذا غفلوا يؤنبهم المعلّم، الصمت يضمن كمال الدائرة ودقة اللمسة الملوّنة. صانعو السيراميك في القاعة المجاورة. الحرارة مرتفعة والدخان الحامض ينبعث من الفرن القائم في بهو المحترف. كما تنبعث رائحة قوية تؤذي العيون والأنوف من الغشاء الزجاجي الضروري لتشميع العجينة المقواة. يملك

الرسامون جدولاً بأشكال بالغة التنوّع نجد بينها الندماء والأمراء المتربعين على العرش والحيوانات الخرافية. إنهم مجتهدون جداً.

ثلاث منمنمات أنجزت للسلطان إسكندر حاكم شيراز مطلع القرن الخامس عشر. الأكثر تلفاً تمثّل المجنون يبكي على قبر حبيبته ليلى. وكان تمّ ترميم العمل قبل عشرين عاماً والألوان المجددة ظاهرة في الزوايا. وقد اتّسخ وجه المجنون بفعل يد متغافلة. المطلوب وصل الرسوم لا سيما على ناووس الميتة. أفكّ الصفحة وأكتشف على القفا خاتم مالكها مكتوباً بالفارسية. وتشير لي عبارة «مجموعة رقم 13» بالفرنسية أنها اشتريت خلال مزاد علني باريسي.

أقوّي الصفحات الممزقة من الخلف، أموّه الطيّات التي تشقق طبقة الدهان وأركّب الورقة على كرتونة جديدة. أصابعي تبعث الألوان، الصفحة تستيقظ من سباتها الطويل وتشكرني على ما أوليتها من عناية.

أخرجت من درج آخر منمنمة بقيت سليمة عبر العصور وبدأت أحلل طريقة تنفيذها. الأمير بهرام جور يدخل الى جناح سريّ ويكتشف رسوم سبع من الأميرات فيقع في غرامهنّ. المنظور الهندسي، والنسب غير الدقيقة، والشخصيات، تبدو وكأنها تتحرك في فضاء غير محسوس، ومع ذلك لا يمكن للناظر إلاّ أن يُعجب بصناعتها. لا ألمسها وأدسّها في حافظتها.

المنمنمة الأخيرة أكثر حكائية، تروي فصلاً معروفاً من حياة السلطان إسكندر القابع وراء صخرة يتأمل الحوريات وهن يستحممن عاريات في البحيرة. يمكن من رأسه الظاهر رؤية عينيه الماكرتين وشاربيه على صورة جناحي السنونو فقط. عليّ تنقيح

ماء البحيرة التي تحولت من الأزرق الصافي الى الكستنائي الموحل وتقوية الهوامش المتفلتة عند نقاط التصميغ. عند تحررها من هذا الضغط تلتف الورقة على نفسها فأدخلها بين كرتونتين لتسطيحها.

ظهري يؤلمني. أقوم بحركات تليين لإراحة رقبتي. أوقفت التمرين ما إن لفت نظري غرض غريب، إبريق صغير من الجاد، أدنو منه وأقرأ البطاقة المعقودة حول عروته «إبريق أولوغ بيك، سمرقند أو الصين، القرن الخامس عشر». بياض الجاد وانصقاله مدهشان الى حدّ يمكن الاعتقاد أنه من ورق الحرير. ألامس بطنه وأبحث عبثاً عن جزء خشن. لكنت اعتقدته إبريقاً صينياً لو لم تكن الكتابات العربية تطوّق عنقه.

«هذا الإبريق كان ملكاً لأولوغ بيك، ابن تيمورلنك. كان يسكب فيه كافة مشروباته. فالجاد يكشف وجود السمّ ويتشظّى الى ألف قطعة عند احتكاكه بأي جسم خطير».

التفتّ فإذا بحافظ المتحف يزورني. بيدرو بينيتو يعرف عن ظهر قلب تاريخ جميع مقتنيات المؤسسة. وإبريق أولوغ بيك هو المفضل لديه.

الجولة في الطوابق السفلى للمبنى مثيرة وبيدرو هو الدليل المثالي لشرح مصادر وتواريخ هذه المجموعة القادمة من أربعة أقاصي الأرض.

يغني توصيفه بإشارات ايقونية دينية. فروافد المذابح القديمة أو اللوحات الدينية تزخر بالرموز الكاثوليكية. لا أستطيع إبعاد ناظريّ عن لوحة «البشارة» لأحد الرسامين الفلامنكيين. يكشف بيدرو عن رموزها الخفيّة. الملاك جبرائيل يبشّر مريم أنها ستحمل

ابن الله. الحمامة المرفرفة فوق رأسيهما ترمز الى الروح القدس وهناك صليب مخفيّ في نقوش الشبّاك. الحديقة في خلفية اللوحة تمثّل الفردوس السماوي. بقيت مسمّرة أمام هذه اللوحة، أعجز عن الابتعاد. الملاك جبرائيل يذكرني بالخطاطين الموتى وخصوصاً بسليم الذي أورثني علمه.

«هل أحبت مريم يوسف؟» سؤالي يُحرج بيدرو. بماذا يجيب تلك المسلمة المسحورة بعمل فني مسيحي؟

«أحبت بشكل خاص الابن الذي حملت به من اتحادها بالله».

لن أستخدم أدواتي في باريس. نظّفتها ودعكتها دون أن أتوصل الى جعلها تستعيد لمعتها المعتادة. غشاء أكمد غلّف المحبرة ومقصّى انحلّ برغيه. مستحيل العثور على هذا البرغي اللعين! لوحي أصابه التلف كأن مئة خطّاط غيري استخدموه. يداي شاختا، أنا شختُ... عدّتي تشكو المنفى، فالبوسفور ما عاد يهدهدها. وضّبتها في قعر حقيبتي. لن أخرجها من غلافها إلا إذا طلب مني نور ذلك. سيكون أسبوعي في باريس رياضياً، نور يريد أن يستكشف لي الأبنية التاريخية والقصور الكبيرة القائمة في محيط باريس: فونتينبلو، فرساي... هكذا يعتاد واحدنا على الآخر.

الرحلة طويلة جداً بين لشبونه وباريس، والمناظر المتوالية تعيدني الى قلقي. أخاف السكوت والملامة. القطار يسير في محاذاة المحيط الأطلسي ورؤية كل هذا الأزرق منحتني الثقة لكن التوقف في المحطات أغرقني من جديد في الشك. أصل الى المحطة، يتأخر فتح أبواب المقطورات. لا بد أن نور ينتظر هنا.

أزرع الرصيف ذهاباً وإياباً ونور لا يلوح في الأفق. ترتجف رجلاي من فرط جرّي للحقيبة. أجلس مرهقة على متاعي وأتفحص الجمهور. لا أحد. يدلّني شاب على مقعد يعتقد أنه يريحني أكثر من كرسيّ المرتجل.

«أشكرك، لكني أنتظر ابني. لن يتأخر».

لم يلحّ الشاب عليّ. ابتعد لعشرة أمتار، ثم التفت ولفظ اسمي الأول دون اقتناع.

بقينا مسمّرين لثوانٍ طويلة. يشبه ابني أي فرنسي آخر، وحدهما عيناه تكشفان أصوله. حمل حقيبتي. مشينا نحو باب الخروج دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر كثيراً. كان يرمقني خلسة من وقت لآخر. هل خاب ظنّه من مظهري؟ ميل والده للنساء الجميلات لم يجعله مستعداً لما يراه. عادية بالأحرى، طويلة ومتصلّبة، حادة الملامح، لا مغناج ولا متصنعة، وهذا ما لم يألفه في النساء الشرقيات. خجل من ابتسامتي فكان يغضّ الطرف عندما أركّز نظري فيه. نور لا يحبّ فيض الحنان ويعتبره في غير موضعه بعد سنوات الغياب الطويلة هذه. يفهم واحدنا الآخر.

في التاكسي الذي قادنا الى غرفته في شارع سولفيرينو، لاحظت يديه الطويليتين والدقيقتين مثل يديّ. أنعش هذا المنظر قلبي، فهاتان اليدان كانتا، في عمر السنة أو يكاد، تشدّان شعري وتنزعان عقد اللؤلؤ.

نور حريص جداً على راحتي. أفرغ أدراج الصوان وأوقف حاجزاً بين سريرينا. أزعجه هذا التجاور فتركني لوحدي وخرج يشتري بعض التبغ.

غرفته مليئة بكتب الطبّ، كتب مستعارة من المكتبة وأسطوانات تفرش الأرض.

يعتاد أحدنا الآخر متفاديين الاستعراضات الكبيرة. لا احتكاك جسدياً، عيناي تقبّلانه عن بعد، أذناي تشربان كلماته. زيارة

المتاحف تغذّي أحاديثنا، نتعلم التعرّف على بعضنا دون التحدث عن أنفسنا.

ذات ليلة بمساعدة الخمر اعترف لي بالقول:

«لم يخبرني والدي عنك أبداً. أعتقد أنه لم يحتفظ بذكرى سعيدة عن زواجكما. هل تحاببتما يوماً؟».

ـ كان زواجاً مدبّراً. والدك وجد لنفسه بلداً وامرأة. لم تكن الخطاطة زوجة صالحة في نظره. كان يفضّل أن أخونه بدل أن أجلس لساعات طويلة في بحترفي أخطّ السور حتى أسقط من التعب.

ـ التقوى يمكن أن تعزل البشر. كان الأب مطران يحرص على أن تكون صلواتنا جماعية. كنت أغنّي صلواتي وأنت تكتبينها. النتيجة نفسها.

ـ إن الله لا يسمع لكنه يقرأ التوريق العربي. يدي تنسّق هذا النشيد كما يقود الأب مطران جوقته.

وافق نور منشرحاً:

ـ من حسن حظ من لا يُحسنون الغناء. تبقى أمامهم فرصة الكتابة اليه.

حررنا هذا العشاء الحافل بالمشروب من ارتباكنا. رجعنا سيراً على الأقدام يتأبط أحدنا ذراع الآخر، نعيد تأليف العالم. أمواج السين الجامدة بدت لي قاتمة قياساً بأمواج البوسفور. طلب مني نور كتابة اسم الرسول على قلادة. ابني المولود مسلماً لم ير أبداً اسم محمد مكتوباً بأحرفه الكاملة.

قبل النوم رحنا نتبادل عبر الحاجز وفاهانا مرتخيان من النعاس، القصص التي طبعت حياتنا. كانت العتمة تخلّصنا من خجلنا

والحكايات القديمة تضحكنا حتى الدموع. اعتدنا منذ الأحاديث كان يكمل واحدنا حكايته بدوره على أن لا يحق للآخر مقاطعته كان الحاجز القائم بين سريرينا يُجبرني على الكلام بصوت عالٍ في كنت أرغب في الهمس.

وصفت له الليالي وكوخ البستاني ورائحة البوظة بالورد التي كانت تعدّها خاتم أيام الحرّ. «لم تكن قد بلغت عمر السنة عندما كنت أرفعك الى حافة الشباك كي تسمع المؤذّن في المدينة السفلى. كنتَ تنظر الى السماء وأنت مقتنع أن الصوت يأتي من السماء، من إله يتكلّم في مواقيت محددة. أدلّك على المئذنة المشيقة كي تميّز مصدر الإنشاد. تمدّ يدك، تحرّك أصابعك كأنك تريد التقاط الظلّ الصغير الذي يدعو المؤمنين الى الصلاة. لزمك وقت، ربما سنوات، لتدرك أن كيلومترات عديدة تفصلك عنه. كنت تضع قبضتك الممتلئة على فمي كأنك تريد أن تمنعني من الإنشاد إذا حاولت ترداد نفس ترانيم الصوت:

لا إله إلاّ الله

محمد اللاأدري، المقتنع بلاأدريته، كان يستنتج من ذلك أنك ابن أبيك. لم يكن يؤمن بإله واحد ولا بامرأة واحدة».

ليلة بعد ليلة، روى لي نور طفولته بعيداً عني. كان الأب مطران والدنه والأب كمهل والده. وكان هذا الأخير يتركه خلال العطل الكبرى أياماً بحالها في ملعب المدرسة ومعه كرة تحت إبطه يرميها بسخط في السلّة عندما تجتاحه الوحدة. كان يفقد الشهية ويصيبه

الهزال بسرعة. يشخّص الأب مطران أنه يعاني فقر الدم فيصف له تجرّع أكواب الماء بعد أن يغطّس فيها الحديد الصدئ.

«إشرب هذا، الحديد يعزز الكريات الحمر».

كان أيلول يعيد له رفاقه والأمطار الأولى. كان هؤلاء بديلاً عن إخوته وعن أبناء عمّه المرتجين. يعيش عطلتهم ويتلفظ بالوكالة بعبارتي «الأم» و«الأب». يقول والده إنه مسبوق في عمله. يزول فقر الدم مع زوال الوحدة وخصوصاً بفضل المؤونة الفاخرة المخبأة تحت سرير جاره المدلل من أهله.

أنام على صوته. يتمنى لي ليلة هنيئة ويستدير الى الجهة الأخرى. يحدّق في الجدار الأبيض. عيناي تتأملان تشققاً في السقف المضاء بمصباح. يغلبنا النعاس معاً.

أستعيد ذكرى أليمة مع وقع المطر على زجاج الغرفة. كان نور وليداً جديداً في حينه. ما إن تعافيتُ من الولادة حتى استعدتُ محترفي وأدواتي وألواح أوراقي. يدي تكتشف مجدداً سعادة الخطّ بعد فترة طويلة من التعطّل. كانت السماء تمطر في ذلك اليوم وزجاج محترفي يعزلني عن العالم الخارجي. الوقت يمر وجسمي يرتعش لرؤية المستطيلات المرسومة بعناية والجاهزة لاستقبال الأحرف التقيّة. محمد المتلهّف لخروجي اقتحم القاعة وشتمني بالألبانية ثم مزّق التأليف وسحبني الى الخارج بعد أن أقفل الباب. احتفظ بالمفتاح لشهر كامل في جيب سترته. كنت أتخيل مِزق الأوراق المنثورة على الأرض والمحبرة المجففة والحبر الذي استحال غباراً وريشي المتصلّبة مثل جيفة هرّ اكتشف ميتاً في صباح شتوي. فتحَ الباب عند حلول الربيع ففوجئ بأن كل شيء كان مرتّباً. الكرسي عاد الى مكانه، الأدوات نظيفة كما كانت عليه يوم الحادث. والأغرب أن قصاصات الورق كانت مجمّعة بدون أي أثر للصمغ. لقد دخل أحدهم المحترف ورمم تأليفي. لكن من يمكن أن يكون قد كتب هذا النصّ الطويل بهذا الخطّ الجميل؟

كان عليّ رضي الله عنه إذا طُلب منه أن يصف رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول:

«لم يكن بالطويل الممغّط ولا بالقصير المتردّد، وكان رَبعةً من القوم،
لم يكن بالجعد القطط ولا بالسَّبِط، كان جعداً رجِلاً،
لم يكن بالمطهّم ولا بالمكلثم، وكان في وجهه تدوير،
أبيض مُشرب، أدعج العينين، أهدبُ الأشفار،
جليل المشاش والكتف،
أجردُ ذو مسرُبة،
خشن الكفّين والقدمين،
إذا مشى تقلّع كأنما ينحط في صبب،
وإذا التفت التفت بعينيه معاً».

تعرّفت على الروابط التي كان يستخدمها سليم بين الأحرف وهي عريضة ولم تعد شائعة. كان قد غاب لفترة وكنت أشكّ في كونه لا يقدّر زوجي إيجاباً فسلوكه الألباني كان ينفّره. لا بدّ أن ضائقتي رققت قلبه. فرتّب ونفض الغبار ونظّف ثم جمع أجزاء تآليفي المتناثرة قبل أن يختفي. فهو الميت ما كان ليلهيه أحد ولم يكن في عجلة من أمره. أخيراً استقبله النبي في جنّته وها هو يترك لي الرهان المكتوب. وحدهم الطوباويون قادرون على إغاثة البشر.

شخير نور لا يمنعني من أن أختم كلامي. حكاياتي عن الأشباح أغرقته في سبات عميق. عند استيقاظه فجراً سيقول في نفسه إن سليم العجوز من بنات أفكاري المتعبة.

الكلام لنور. يطوي ذراعيه تحت رأسه ويروي وعيناه مشدودتان الى السقف كأنه يقرأ فيه ماضيه.

كان في الخامسة عشرة وكان يمضي فصل الصيف بين بيروت

وجونيه، وهي قرية ساحلية صغيرة مثالية لاحتضان البرّ والبحر في رمشة عين واحدة. كان يتبع والده الذي عاد للاهتمام به. تعرّف بيار على تاجر عطور ثريّ يعيش في صيدا، المعقل الإسلامي في جنوب لبنان. أمضيا يوماً في زيارة معالمها والتسكّع في شوارعها الضيّقة المؤدية الى المرفأ. استرعت انتباه نور هياكل اللحم المعلّقة في عقافات والجاهزة للتقطيع بسكين الجزّار. أصيب بالغثيان وراح يتقيأ في زاوية أحد الشوارع المقفرة. امرأة عجوز جالسة عند عتبة بيتها رطّبت له جبهته وقدّمت له الماء ليشرب ثم دفعته نحو المسجد القريب حيث أرغمته على تقبيل القرآن. انصاع نور دون أن يدرك ماذا كان يفعل. كان والده يبحث عنه لكن نور لم يحفل بذلك بل تقدّم كالمسيّر بخطى بطيئة نحو قاعة غارقة في الظلّ حيث كان رجال راكعون يتلون الشهادة معاً: الله أكبر، ألله أكبر. تأمل طويلاً هيئة الإمام المتكئ على العامود ومن ثم المحراب المفترض أن يمثل النبي والقائم عند الجدار الموجه ناحية القبلة. لم يشعر بتاتاً أنه في أرض غريبة بل أحسّ أنه عاد بين أهله. فأصوات الرجال هذه مألوفة لديه ورؤية باطن الأقدام المطوية على سجادة الصلاة كانت جزءاً من ماض سحيق. لكنه سرعان ما استفاق عندما قرصته يدٌ في أذنه أجبرته علّى الوقوف ومغادرة المكان. لم يفارقه والده قبل خروجه من الحرم. لم تكن العجوز واقفة لتشهد على حسن نيته فلم يعد هناك من يبرهن براءته. بعد أن نسي الحادث حفظ في ذاكرته صدى الأصوات المتقطّعة بجريان سبيل ماء الوضوء.

في آخر النهار قدم له مُضيفهما قلادة محفور عليها اسم الرسول. احتفظ بها نور بعناية حتى العودة الى المدرسة فجعل منها تميمته

السريّة ودسّها وراء زخرف باب كرسي الاعتراف.

خلال القداديس اليومية كانت عيناه تنتقلان بين المصلوب المعلّق فوق المذبح وبين القلادة فكان فخوراً بجمعه بين المسيح والنبي في حيّز واحد وعلى علوّ واحد.

لا بدّ أن نور وجد حكاياتي غريبة مقارنة بجنح شبابه الصغيرة. أودّ أن أروي أمراً مضحكاً لكني لم أسترسل في الضحك من زمن طويل كما استرسلت عند سماعي إحدى الحكايات التي رواها محمد خلال زيارة له الى اسطنبول. في محاولته التأثير علينا كان يمطرنا بالأحداث التاريخية التي يعتبرها ذات «أهميّة عالمية» والتي كان له فيها دور محوري. هذا ما حصل في الانقلاب المدبّر ضد الملك زوغ الألباني. كنا أنا ورشيدة وخاتم نصغي اليه باهتمام. كان يقول إن محيط زوغ كان يعترض عليه ويأخذ عليه توقيعه اتفاقية التعاون الألباني الإيطالي. فوقع الاختيار على محمّد وليس على غيره لاغتيال الملك. فتسلّح بمسدس قديم وانتظر زوغ على درج البرلمان وكعادته أطلق في وجهه خطاباً طويلاً سحبة واحدة بدل أن يطلق عليه النار:

«يجب أن تموت يا زوغ كي يعيش الشعب الألباني.

لقد لطّخت شرف الوطن ولطّخت الدم الذي يسيل في عروقنا،

فرّطت بكرامة شعبك برميه بين ذراعي إيطاليا الفاشية.

أنت غير جدير بالمُلك،

باسم الأمة الألبانية أقتلك كي يتحرر شعبي الى الأبد من الشرّ الذي تكبّده إياه».

جرّده الحرس الشخصي للملك من سلاحه وتنكّر له مدبّرو المؤامرة وانهال عليه التوبيخ فيما كان يجري تقييده بالأصفاد. مسكين محمّد، توقع إبهارنا فيما نحن كنا نبكي من شدّة الضحك.

عرفنا في تلك الليلة أن الملك عفا عنه لكن لم يسمح له بعدها أن تطأ قدماه ألبانيا. لذا دخل تركيا دون أمل في العودة واستقر عندنا في بكلربكي.

أخبرني نور كيف وصل الى بيروت عام 1945. كان في السادسة من عمره فقُبل في الصف الابتدائي الأول وتمّت عمادته في الصباح الباكر. جرى تغطيسه كاملاً في الماء بينما اكتفى والده بمسح جبينه بماء جرن العماد. سرٌّ بالغ السرعة منحه إياه الأب مطران وكان مزاجه عكراً. يرتاب من الألبان الذين يغيّرون ديانتهم كما يبدّلون قمصانهم. دخل نور الى الصف ورأسه مبلل بالماء والزيت المقدّس.

تفاداه رفاقه. كان يلعب وحده وهو يشدّ على كِلله، دون صديق أو قطعة حلوى. يبكي عندما تغرق قاعة المنامة في الظلمة ويجهد كي لا يتبوّل في سريره. حضر الوالد لرؤية ابنه في الأيام الثلاثة الأولى ثم كل ثلاثة أسابيع ومن بعدها كل ثلاثة أشهر. مرّت السنون. كان بيار يمثّل دور التقيّ ويُكثر من زياراته الى الأديرة والمزارات من القديس شربل الى القديسة ريتا. وحدث أن رآه ابنه يتسلّق منحدر أحد الأديرة المشادة على اسم أحد القديسين المعروفين ثم يركع ويضرب صدره حتى يسيل دمه.

كان يفترض بنور الاعتراف مرة في الأسبوع، صباح الجمعة ويسرد لائحة خطاياه من خلال فعل الندامة:

أنا نادم يا ربّ لأني أسأت إليك

لأنك كلّي الطيبة والخطيئة تغيظك
وإني مصمم من كل قلبي وبفضل نعمتك المقدسة
على أن لا أسيء إليك بعد الآن وأن أقوم بفعل الندامة.
كدت أسأل نور لماذا يرفع الكلفة عندما يتحدث مع الله، نكر هذا السؤال كان سيشكل خرقاً لطقسنا. تحدثت بدوري. كنت كل أفكاري مركّزة على هذا اليوم من صيف 1945.

«كنت تقف متفاخراً، تحمل حقيبتك الكرتونية، فأمسكتَ والدك من يده وأنت تحرص على السير حسب إيقاعه. خصصتنا بابتسامة ماكرة عندما اجتزت الباب الخارجي الذي كنا نمنعك في الأيام العادية من الاقتراب منه. نسي محمد إغلاقه وأضافت الريح الى ما نشعر به من أسى صوت الخشب يضربه الفراغ. هرعت رشيدة وخاتم لإغلاقه، أنا كنت أود أن يصفق مئة مرة، ألف مرة، طوال حياتي كلها كي لا أنسى يوم التعاسة هذا.

لم أبكِ بل صعدت مباشرة الى المحترف وأنا أصمّ أذنيّ عن نداءات أمي وأختي.

رسمتُ روائع في ذلك اليوم، يدي لا تنفك تبهرني. لم يبق من هذا الحبس الإرادي سوى طعم حامض الحبرْ في فمي. وجدتني خاتم ورشيدة مرمية أرضاً والمحبرة جافة الى جانبي. كنت ابتلعت محتواها حتى النقطة الأخيرة دون أن أنجح في الانتحار. اعتقدتا أني مسممة بينما كنت فاقدة الوعي من جرّاء السكر فقط. في نصف إغفاءتي كنت أتخيّل خطوط أرابسك ذات جمال مذهل لا متناه. أرسم الحروف كشعرك الدقيق والأملس. المفرق الوسطي يقسمها جزأين.

هكذا لم يأخذني الله هذه المرة. لم يكن مستعجلاً على استقبالي، فهو لا يقبل أن نغادر قبل أن نقدم له آخر إنجازاتنا، والأجمل على ما يبدو».

لم نعد نحن أنفسنا بعد تلك الحكاية. لم يعد لدينا ما نقوله لبعضنا، كنا أنا ونور كالعاشقَين اللذين من فرط ما افترس واحدهما الآخر تخلّصا من حبهما. استنفدنا قدراتنا، أفرغنا قلبينا وذاكرتينا.

رغبت في الرجوع إلى منزلي العائلي. هذه الحكايات الليلية كلها محت حياتي الحقيقية. لم يعد لي ماضٍ.

وعَدَ نور بالمجيء الى اسطنبولَ قبل نهاية العام. كان يريد رؤية العلامات التي حفرتها على إطار باب غرفته لأقيس طوله. متر قبل مغادرته الى لبنان. طالما تخيلت العلامات التي كان يمكنني حفرها في غيابه، كان على عمتي مريم أن تبلغني قياسه سنوياً بالبريد.

•

عدت الى بيتي ومحترفي. أمي كانت أصيبت بهزال شديد في غيابي. خاتم قلقة على صحتها، العجوز تجد صعوبة في التنقّل. اجتمعنا في غرفتي كي أخبرهما قصة رحلتي. قبّلتا صور نور وباركتاها بالدعاء والتعاويذ. من فرط حماستها لرؤيته كبيراً نسيت أمي ألم عِرقها واستأنفت السير على قدميها.

لم أمضِ سوى خمسة عشر يوماً في أوروبا، ومع ذلك استقبلتاني كأني جبتُ العالم كله.

ابني نديم قلق على أحوال العائلة المادية. يحاول الاستعداد للأسوأ: مقاول عقاري نصحه بهدم البالي وتشييد بناء من ست طبقات مكانه على أن تخصص الطبقتان الأخيرتان للعائلة. فقطعة الأرض باهظة الثمن ويمكننا العيش بيسر.

يدور نقاش مؤلم. فالبيت متجذّر في أرض البوسفور الصلصالية وشجرة الرمّان تعطي ثماراً كل صيف منذ نصف قرن. شهد هذا المبنى ولادة حوالى اثني عشر طفلاً ووفاة خمسة عُجّز. سمع صراخ آلام الولادة من عدة أمهات والصمت الرصين في ليالي السهر على الموتى. رافق العائلة في أفراحها وأتراحها دون أن يشتكي اللهم إلا من جرّاء إهمالنا. تحمّل تدفّق البوسفور وسقوط شجرة الأرز على سطحه خلال عاصفة 1932.

يخشى نديم أن لا تكفي تضحياتنا لتأمين إصلاح الخراب. فهو يتطلب شهرياً حضور سمكريّ ومنظّف للمداخن ونجّار. علي التفكير قبل اتخاذ القرار: إصلاح أو بيع هذا المبنى المشيّد في نهاية القرن التاسع عشر عندما كلّف السلطان عبد العزيز مهندسه سركيس بليان بناء مصيف له على الضفة الآسيوية للبوسفور. قلّده الوجهاء الأثرياء لكنهم نقلوا في الخشب ما غالى في تشييده بالرخام. أراد والد جدّي بناء هذا المنزل هرباً من حرّ الصيف فتحوّل مع الوقت الى مكان إقامتنا الرئيسية.

حكايات عديدة تدور حوله، لا سيما تلك الأسطورة المتعلقة بأصل اسمه. دولفينيا تيمّناً بالدلفين الذي غار في المرآب وراح من ضيق المكان يضرب ذنبه بقوة بحيث ارتجت الجدران. والد جدّي الذي أيقظه صوت اهتزاز الثريّا وصرير الجدران اعتقد بوقوع هزّة أرضية قبل أن يدرك سبب الضجيج. فحرر الدلفين بأن وسّق زورق القايق* الذي كان يمنعه من الخروج. يوم وفاته كان يعتقد أنه سوف يلتحق بالدلفين الفضّي الذي يضحك ملء فمه. غالباً ما تخيّلت المشهد، ما زالت سقسقة الحيوان تتردد في أرجاء المرآب المهجور ومنذ خمسين عاماً يزدان مدخل اليالي بدلفين من الموزاييك.

لن يرى نور كوخ طفولته ولا تخشيبة الحديقة. أما الدرب المؤدي الى البوسفور فسيفرش بالإسمنت على غرار كورنيش بويوك دري. انهار مسكننا المتداعي دفعة واحدة وسط الغبار والضجيج ليقوم ذراع الرفش الآلي بإخلاء بقاياه المتناثرة. قضى على هذه الجثة الخشبية في وقت قصير. لم يبق منه سوى تلة صغيرة وسخة تتجاور فيها

---

* نوع من القوارب (المترجم).

ألواح خشب الأرضية مع الزجاج المحطّم والستائر الممزقة. محترفي الغارق في هذه القلعة الناشزة سيأخذ معه الساعات التي كرّستها لإتمام بيتنا.

كان حلم نديم أن يقيم مع عائلته في شقّة حديثة ذات جدران صلبة. طلب من متعهّد البناء ممراً خاصاً به الى البوسفور ليتمكن من الصيد بهدوء. في الواقع سئم لعب دور السمكري وعامل التدفئة وتعب من إصلاح الدرج.

يحثّني، ولا ينفك يمتدح الحياة في الشقة؛ لكن حججه تصطدم بشرط واحد: لن أدمّر شيئاً قبل أن يعود نور الى زيارة بيت طفولته. أعلن قدومه القريب في آخر رسائله ومجيئه مرهون بنتائجه الجامعية.

يخبرني في الرسالة نفسها عن وصول والده الى باريس. وجد له نور شقة جديدة في بولونيه، إحدى ضواحي باريس السكنية. تهمّه دراسته قبل كل شيء ووالده ما كان سيحترم إيقاع عمله ومغالبة النعاس من أجل المذاكرة. يلتقيان يوم الأحد ويتناولان الغداء في أحد المطاعم.

ذات يوم، ولدى عودته من مناوبة في المستشفى، فاجأ نور بائعة الخبز في بولونيه في سرير والده. استعاد الغاوي الكبير سيرته الأولى وميله للجميلات المتناسقات القوام.

الوالد يحلم سلفاً بلوحة تحمل اسم ابنه معلقة على واجهة أحد المباني الباريسية وبعقدة البابيون تطمئن المرضى المتخيَّلين. يفضّل نور أن يكون باحثاً لكنه لا يصرّ. الفروقات كبيرة بين الأب والابن. فما يجنيه الابن من نوبات الليل في المستشفى تبدو بخسة قياساً على

النفقات المفرطة للأب. لا يوفّر شيئاً، من البزّات المزدانة بالأزرار المتقاطعة الى القمصان المنشّاة المزيّنة أزرار سوارها بحجر «عين النمر» دون نسيان الوجبات على الواقف وبدون صحن في المطاعم الباريسية الفاخرة. بيار الحريص دائماً على مضاعفة إشارات الثراء الخارجية كان يلتقي اللبنانيين العابرين في باريس فيروح ينفق بلا حساب. ووصل حسابه الى الصفر بعد عامين أمضاهما في نمط حياة فوق طاقته. وهو يستمرّ في اليوم الواحد بإنفاق موازنة شهر بأكمله لكن المتأنّق العاجز عن ركوب التاكسي كان يكتفي بأن يستقلّ المترو للعودة الى البيت. ولا تدوم قراراته بالاقتصاد أكثر من يومين لتتبخر وعوده بتحسين سلوكه عند احتكاكها بمشتهياته: منبّه من عقدة الخشب أو قلم حبر ريشته من قشرة السلحفاة. وكان تراكم هذه المشتريات يجبره على تبريرات سخيفة بحجة أن هذه الأشياء ستكون من لوازم عيادة نور عند افتتاحها. «يُعرف الأغنياء من هذا النوع من الحلى، سوف تشكرني فيما بعد»، ومع ذلك لم يكن يرتسم أي امتنان على وجه الابن المتبرّم من سدّ العجز في حساب أبيه وتهدئة نفاد صبر مدير المصرف. وقد اضطر نور مرات عديدة الى إعادة المشتريات واسترداد ثمنها. وأقسم الخياط الإيطالي عند زاوية ساحة فندوم بأنه لن يستقبل مجدداً هذا الزبون المفلس إذ كانت شيكاته لا تُحصّل بالرغم من قلم حبره المذهّب وهو يتأنق في إخراجه من غلافه. كان بيار يحدّ من تسكّعه في باريس تفادياً للتجربة ومع ذلك استمر في اختيار لباس الصباح بعناية فائقة منسّقاً بين الجوارب وربطة العنق، يتعطّر ويجلس في أريكة الصالون كأنه ينتظر زائراً مرموقاً.

بولونية باهتة في نظره وكان يفضّل تقاسم شقة فخمة مع ابنه

في شارع سولفيرينو كان نور فتح فيها مختبراً للتحاليل الطبية تأميناً لنفقاته الشهرية. قاعة الاستقبال هي في الواقع غرفة النوم والبرّاد مليء بعيّنات الدم والرقاقات الزجاجية والمِخبرات المليئة بإفرازات من كل الأنواع.

بكلربكي تشرين الأول 1959

ولدي،

مضت سنتان وأنا أتأمّل رؤيتك في بكلربكي، لكن فصول الصيف تمرّ الواحد بعد الآخر ومياه البوسفور الفيروزية لا تقودك اليّ. سيُهدم البيت في الربيع المقبل وقد وجدنا لحسن الحظّ جاراً سعيداً بإيوائنا حتى الانتهاء من أعمال البناء. هل تتذكّره؟ بنى لك فيما مضى كوخاً في خلفية الحديقة. سينتهي تشييد البناء الجديد خلال ثمانية أشهر. أخوك نديم سيقيم في الطابق الخامس وأنا وخاتم في السادس. ستبلغ أمي الثانية والثمانين من عمرها في الشهر المقبل. تقول إنها لن تشاهد البناء مكتملاً. ترغب في الموت قبل انتهاء الورشة. أختي الصغرى ينتابها الأسى عندما تفكّر بالليالي، آخر معالم ثروة تبخّرت وماضٍ رائع.

من جهتي أترك الأمور تجري. قد تكون الحياة في الشقة صعبة فأنا أستقبل التلامذة في بيتي بانتظار تشييد الجامعة الجديدة.

ربما تكون محقاً في التخلي عن فكرة العودة الى بكلربكي فذكريات أليمة كثيرة مرتبطة بهذا البيت. وحتى بعد هدمه سنبقى نسمع صريرها تحت أقدامنا. لكن الإسمنت لن يمحو كل شيء فالأساسات القديمة منغرسة عميقاً في تربة الضفة الآسيوية الموحلة.

عظامنا تتحول غبار المرمر من خشب أعمدة البيت. لا تحجب عني أخبارك.

رفعت

جواب نور ضرب البيت بريح من نخوته. رنّت الكؤوس وزجاج النوافذ من صرخات الفرح التي أطلقتها حتى وهرعت أمي لالتقاط الرسالة غافلة عن عظامها الضعيفة. قرأتها بصوت عالٍ لكنهما أصرّتا على النظر إليها بأم العين. سيأخذ نور عطلة مدة أسبوع في نهاية شهر كانون الأول ويأتي بيروت.

أصرّ نديم على توفير الراحة لأخيه خلال إقامته. وضع سريراً ومكتباً في غرفته ودعّم القفل من أجل رحلات الصيد. أختي وأمي تمعنان في فرك الغرفة كل يوم. لم يكن بيتنا مرة بهذا الجمال. من جهتي أحاول إنهاء برنامج دروسي السنوية قبل وصوله.

خاب ظنّ طلابي مع انتقال الصفوف إلى مبنى الجامعة. صف تعليم الخطّ في البيت كان أشبه بملتقى سريّ يجتمع فيه العاشقون بالخطوط. والجامعة الحديثة البناء لا تتوافق وسحر هذا التعليم العريق وضرورة توفير أجواء التأمل. الأدوات الجديدة تُصدر أصواتاً تكاد لا تُسمع. الريَش الحديدية تتأوه على حجر الشحذ. الألواح تخور وورق النسخ يرتجف تحت ضغط الإبرة التي ترسّم حدوده زخرفة معروفة. الصمت مُطبق باستثناء تنفّس الطلاب على إيقاع حركات أيديهم. لا يستخدمون كل ما في رئاتهم من هواء ولا كلّ ما في رئتيهم من جهد. بتّ أميّز الطلاب المهرة من الضعفاء الموهبة. الذين يجهدون يعانون العذاب ولن يكونوا يوماً خطاطين حقيقيين. على العكس من

الامتلاء يطغى على الأكثر موهبة فيُختزل جسمهم في سحبة الحبر المتمادية مع تنامي لذّتهم. يصبحون خارج الوقت وخارج أنفسهم. قال لي محسن إن الكتابة هي متعة الخطاط الجسدية الوحيدة وإن لحظة الهناء التي نحبس فيها نفسَنا للقيام بحركتنا هي أقوى من لذّة الجماع. تدخل أجسادنا في تواصل مع الإلهيّ، ربما مع الموت بذاته.

أتعرّف على الموهوبين دون النظر الى تآليفهم: فالخطّ الجميل يضيء القسمات، يهللها، ويجعل النظرة أكثر حدّة.

يخرج الخطاط الجيّد زائغاً من هذه المغامرة فيجتاز البوسفور وعينه تائهة في الأفق. يلزمه بضع ساعات للعودة الى أرض الواقع.

وحدها قبضة محمد وهي تدق الباب كانت تردّني الى هذا الواقع. وكان زوجي يعجب من رؤيتي أكرّس الوقت الطويل لإنجاز القليل، لكن رحلاتي كانت غنيّة الى حدّ لا أضطرّ معه للإجابة على تهجماته. كنت مهووسة بعملي الذي لم يكتمل فأروح أتخيّل التتمة وأنا أكوي الثياب. محمد يحبّ أن يقرأ على وجهي معاناة العمل غير المكتمل. كم مرة تأمّلت درابزين الدرج المؤدي الى محترفي ودرجاته الضيقة؟ لكني كنت أشيح بوجهي عنها.

محمد يُكثر من الخروج ليلاً ولا يرى ابنه إلاّ في ما ندر. كان نور يقطّب وجهه عندما يصل فوحان التبغ والكحول الى منخَريه. والده كان يرتاد ملهى «الكازينو» ويبقى لساعات بأكملها على رصيف قصر دولمابهجه قبل أن ينتقل الى الضفة الآسيوية. سائقو تاكسي «دولمش» كانوا يهربون من منظر عيني السكّير الكابيتين ورائحته القوية فيجد نفسه أحياناً على متن قارب صيّاد جالساً على لوح خشب الى جانب شِباك السمك. الرحلة قد تدوم ساعتين طويلتين،

ما يكفيه لتبديد سُكْره. كنت آمل أن ينسى عنونت لكنه يعود في كل مرة لينزلق في ملاءاتي المنشّاة مستسلماً للنوم. ينعم حتى هبوط الليل وكانت لياليه البيضاء تضمن لنا نهارات حادثة. تستيقظ نمي وهي تجترّ أفكاراً إجرامية بينما كنت أتنشّق أبخرة تخفه الحامضة. كرهته في الصمت حتى جاء اليوم الذي عجزت فيه عن السكوت.

بكت رشيدة وخاتم عند اجتياز نور باب المدخل. عانقه نديم في ضمة أخوية طويلة ثم حمل حقائبه الى غرفته.

دفعتنا الريح الثلجية الى جانب المدفأة.

كنا ننظر الى اللهب، سعداء بأن تشغل شرارات الموقد سكوتنا. ثرثرات نديم تريحنا، زوجته وولداه يوسّعون الدائرة، الانزعاج يتلاشى مع نهاية النهار. تستمع خاتم الى ما يقوله نور بكل شغف ورشيدة تفرك له ظهره دون توقف لتتأكد من حضوره. أكلنا وشربنا وضحكنا حتى الفجر. نحن، نساء البيت، أخلدنا الى الرقاد مبتسمات.

جبنا المدينة كلها ومررنا بأبواب المساجد جميعها كما تسكّعنا في أزقة السوق المسقوف دون أن نتذمّر، فحماسة نور كانت تشغلنا عن تعبنا.

يصغي بانتباه الى إرشاداتي ويهزّ رأسه موافقاً إذا ما أعجبته شروحاتي. ظمآن للتعلّم، يتفحّص أدنى المعروضات في الواجهات محاولاً التكهّن بالمواد التي صنعت منها. كانت رشيدة في البيت تترقّب عودتنا.

نور يحب الأكل، هو ونديم قادران على التهام محتويات قائمة المطعم دون أن يشبعا. يريد تذوّق كل شيء، ومقارنة كل شيء. تطلق

رشيدة عليه تبريكاً كلما تكلّم. اضطرت خاتم لإسكاتها. يريد سيد اصطحابه الى جزيرة بويوك ادا حيث يوجد أفضل مطعم سمك في المنطقة.

يعرف نور البيت بكل زواياه، وراح يتسلى في التعرّف على إطار الباب والعلامات التي تشير الى علو قامته عندما كان صبياً. فحفر عليه خطاً يشير الى طوله الحالي. الفارق كبير بين القياس الأخير والعلامة التي أضافها وبدت لي السنوات التي مرّت كأنها ردح طويل من الزمن. حتى أنه اكتشف عجوة الزيتون التي كان حشرها في سقاطة الباب وكانت متقلّصة وتكاد تتحوّل غباراً لو ضغط عليها بإصبعه. لكن نور فضّل تركها هنا تكمل وجودها المتوحّد.

بدا ابني تداعبان دراويش المرمر. ذكّرته أنه في صباه كسر الشيخ من بينهم. فضحك وحمل في راحته الدرويش الذي يخلع عنه معطفه إشارة لتخلّيه عن العالم المادي. يحب نور اللعب بها وتمرير الضوء في الجبس الشفاف. نظرته كعالم تسبر المادة.

هذا الصباح أيقظه نديم عنوة. جزمته الكاوتشوك تصدر صريراً فوق الأرضية العتيقة. ابتلع نور كوب الشاي دفعة واحدة وارتدى ثيابه كأنه سائر في نومه. تبعه صامتاً الى زورق التجسير حتى وصلا الى القايق المربوط بحبل رطب. بقيا ساكتين لعلمهما أن كلمة واحدة تكفي لإثارة شكوك أسماك البحر. كان نديم قد أعدّ قصبات الصيد والطعم ونور يتابع بانتباه حركات أخيه ويقلّدها بعناية. جذفا بنفس حركات الذراعين ونفس الإيقاع ثم توقفا. لم أكن أرى من شباكي سوى ظهريهما المنحنيين وقبعتيهما ونفَسَيهما اللذين يرسمان بخاراً ضبابياً في الهواء. البوسفور ملكهما.

كانا يتهامسان، نقاش طويل لا يقطعه سوى ارتعاش خيط النيلون. صوت دوران القصبة يدفع بكافة أنواع السمك الى سطح الماء.

ثلاث ساعات بأكملها للصيد. في طريق العودة، أمسك نديم أخاه من كتفه وسارا بخطى متسارعة. كان نور قلقاً ولا يعرف كيف يخفي أساه. بدا عليهما الاضطراب بالرغم من الدلو الملآن بالسمك عن آخره. أدركت للتو ماذا حدث. كشف نديم السرّ الذي كنّا نخفيه في منطقة منسية من ذاكراتنا.

أي كلمات استخدم ليصف هذا الصدع؟ لا يهمّ، فيجب أن يعرف نور سبب انفصال والديه ولا يمكنه العيش في الكذب. لا والده ولا والدته كانا قادرين على مفاتحته بالمسألة. فالخجل كبير والكلمات تافهة. شكرت نديم لأنه قام بالمهمة مكاني.

استمرت إقامته في جو من المرح. كان نور يمرّ بلحظات غياب وعيناه تشخصان في الفراغ. لا بد أنه كان يتخيّل ظروف المأساة. حدث لي أن استعدت رؤية هذه اللحظة كي أنفخ في خياله المشاهد التي انطبعت في نفسي. كان نديم يدرك ما يدور في خلده ويدفعه الى العودة الى أرض الواقع. نور يضاعف من ملاطفته لخاتم التي لم تفقد ما تميّزت به من رقّة. فهي حافظت على رهافة حسّها وبياض بشرتها. كانت أختي أجمل نساء العائلة ومع ذلك رفضت كل طلبات الزواج من صناعيين ومصرفيين وتجّار كبار. أشعر بالرعب الآن عندما أتذكّر نظرات محمد الذي سحره جمالها خلال جنازة والدنا. التجأت الى ذراعيْ والدتها خوفاً من الغريب.

أول زيارات الصداقة التي قام بها محمد كانت نابعة في الواقع

من حبّ ترفضه خاتم. الصديق التركي الوحيد لمحمد كشف هذه المشاعر وأنذره بشأنها.

تحوّلت زياراته الشهرية الى أسبوعية لكنه لم يعد يحدّق في طلعة خاتم اللطيفة بل في عينيّ الحزينتين. في وقت لاحق شدّ بقوة على يدي فيما كنت أدلّه على الفروقات التصويرية بين السجل التزييني لسيراميك إزنيق والسجل الأكثر سذاجة لسيراميك كوتاهيه. ثم قبّلني لما ودّعته عند باب المدخل.

عند غيابه كنت أنجز تآليف غاية في المهارة أمحو بها الاضطراب الذي خلّفه في نفسي. يدي اليمنى التي ما تزال ترتجف من فعل قبلاته تضخم الخطّ بحركات حادة.

«لن ينظر الله الى هذه الكتابات الأخيرة. فهي تنضح باللذة وبحرارة السرير الرطبة بعد مرورك فيه. لسوراتك رائحة حامض عرقك بعد المجهود. لا لذّة للخطاطين إلاّ في عناق القلم». هذا ما كان يهمس به سليم في أذني وقد اغتاظ من رؤية عدّته تنقاد لأفكار «دنيئة».

سئمت من الإصغاء الى مواعظه فتركت محترفي. شتمني ونعتني بحسب مزاجه بأني خاطئة طائشة أو أني عاهرة كافرة.

وكان يردد بصوته الذي يتعذّر سماعه: «ليس للخطاطين قلب ليحبّوا بل أقلام ليكتبوا».

سافر نور صباح اليوم. ودّع اليالي وضمّنا الى قلبه واحداً واحداً. دسستُ رسالة في حقيبة سفره وطلبت منه أن يقرأها في القطار.

كان هذا الرحيل يشبه وداع طفولته. النباتات في الممر هي نفسها، مبعثرة ومحترقة في بعض الأماكن. كان نديم يضمّه كما فعل محمد قبل

عشرين عاماً. شعرت أني أنزلق الى هاوية، الحدث نفسه يتكرر.
فضّ نور الرسالة عندا أطلقت صفّارة القطار. هل أضحكته رسالتي؟

بكلربكي، 4 كانون الثاني 1960

نوري،
أضيع بين كل تلك الأسماء. فجان مسيحي أكثر مما ينبغي في نظري، سيكون اسمك نور في تركيا.
أعدت الينا طعم السعادة. أن يُهدم اليالي أو لا لم يعد الأمر ذا أهمية. فالبناية التي ستنبت مكانه ستكون مضيافة أيضاً ولن تمنع نديم من إيقاظك عند الفجر للذهاب الى الصيد.
أنت الأخ الذي حُرم منه في شبابه، لا تؤاخذه لأنه فضح سرّنا، عليك أن تتقاسم معنا الأفراح والأتراح.
جاء دوري الآن كي أخبرك الحقيقة.
ولدت قبل الحرب مباشرة، يقال غالباً إن الأطفال الذين يولدون أثناء الحروب لا يحظون بأبوين متفاهمين. لم تحارب بلادنا ضد العدو لكن الحرب كانت شاخصة في أذهاننا. سرعان ما تشاجرنا أنا ووالدك، فقد بدأ بمعاقرة الخمرة وكي أنساه كنت أنعزل في محترفي. لم يتحمل لامبالاتي. كلما أعادت لي أعمال الخط صفائي كلما ازداد حقده. كنت أثأر بصمتي ولا أقوم بما من شأنه إخماد غضبه. رشيدة وخاتم ونديم كانوا يعانون من هذا المشهد اليومي دون التلفّظ بكلمة، كانت والدتك تخرجك لتنزّهك في الحديقة عندما كانت الجدران تهتزّ من شتائم والدك.

ذات صباح، استيقظ البيت على صراخ رحمي، صياد بكلربكي. كانت نداءاته تجعل القايق يهتز به فهرعنا أنا وأمي حافيات حتى السدّ. الغريقة التي انتشلها من مياه البوسفور المثلّجة لم تكن سوى أختي الصغرى. حملناها الى البيت ونحن نرسم وراءنا خيطاً من الماء. الحمدلله كان قلبها ما يزال يدقّ. جففّناها وأدفأناها. صوت شهيقنا أعاد لها الوعي فأخذت علينا منعها من الموت مرددة: «بأي حق. بأي حق تفعلون هذا؟». الطبيب الذي وصل بعد دقائق طمأننا على صحّتها لكنه قال إن الطفل قضى في الحادث. أي طفل؟ صرخت أمي وهي في ذروة الغضب. كانت قادرة على قتل ابنتها جدّياً هذه المرّة. كيف نخنق هذه الفضيحة في الوقت الذي كان أهل بكلربكي متكدّسين في بهو بيتنا يسألون عن الأسباب التي دفعت ابنة نسيب بك الكبير الى محاولة وضع حدّ لحياتها؟ في اليوم التالي وتحت وابل أسئلتنا ومضايقتنا لها باحت خاتم باسم والدك.

في الليلة نفسها كانت حقيبته تنتظره على سفرة الدرج فراح يضرب الباب بقبضتيه. لن يرحل بدون ابنه. ثم سار بخطى واثقة الى محترفي، دخل دون أن يطرق الباب، أمسك بمقلمتي ليرميها عبر الزجاج. ابتلعها البوسفور.

حرمني والدك في ذلك اليوم من أثمن ما أملك: أنت ومقلمة صديقي العجوز. لماذا تركتك ترحل معه؟ اعتقدت بأني سأستردّك لاقتناعي بأن والدك العديم المسؤولية سيرسلك إليّ من جديد.

هرول على الدرج ليحزم حقيبته حيث حشر ثيابك حشراً. حضرّت رشيدة لوازم الرحلة فذهبت مبتسماً. تعرف التتمة أفضل مني:

راح نديم يغطس كل يوم في البوسفور بحثاً عن المقلمة فلم يجدها أبداً. والغريب أني ربطتها بك، فكان عليّ العثور عليها بأي ثمن كي تعود لي.

رفّت

توفيت أمي ودفنت في مقبرة أيوب في السرداب العائلي. أمليتُ على عامل الرخام الكتابة التي حفرها على الشاهد:

رشيدة كونت

أسكدار 10 حزيران 1882 ـ بكلربكي 7 آذار 1960

عند عودتنا الى البيت رأيتها في المنام طوال الليل وكانت تحدثني بوضوح وتشتكي من نحافة أحرف شاهد قبرها. نصحتني بإلباسها معاطف حارة تحسباً للشتاء القادم. عندما استيقظتُ طلبت من الحفّار تضخيم حروف شاهدها.

تغيّرت حياتي، أنا وخاتم نقيم عند الجيران. رفع ركام بيتنا فباتت أساسات الباطون بادية للعيان من الشاطئ. نديم وعائلته الصغيرة يقيمون عند ابن عمّ لنا في حيّ السلطان أحمد.

تغيّرت اسطنبول كثيراً وكذلك عائلتنا. حتى أعمالي تتأثر بهذه الحداثة المهيمنة على الأجواء. الاستغناء عن الأعراف الجمالية لصالح موضوعات أكثر طبيعية وأكثر آنية. استُبدلت وريداتي أو سُعفي المختزلة بلمسات من ألوان فاقعة تحوّق دوائر الحروف. تتنقّل كلماتي بحرية متسكّعة على الورق فتتجاوز أحياناً حدود الخانات المفترض أن تستقبلها. لا أسيطر على يدي وتغضب كلما

حاولت تطويعها.

«البناء والهدم» هما على ما يبدو عنوانا هذه الحقبة. بناء الإسمنت ارتفع بسرعة ومن الآن وجد من يشتري. كنا أنا وخاتم أول المقيمين فيه، في الطابق الأخير حيث الطلّة على البوسفور مدهشة وحيث كنت أجد نفسي فجأة أتمسّك بالجدران أو ألتصق بها عندما يصيبني الدوار. يدي لا تعمل كما في السابق منذ بتنا نقيم على هذا الارتفاع، فهي تلامس الورق وتنثر الحبر كالقذيفة. ما عدت أرى اليابسة من نافذتي بل فقط ذراع البحر الفيروزي معانقاً اللامتناهي. ترتجف أصابعي عندما تعجز عن الحركة. إنها ليست بالشيء الكثير في نهاية المطاف، نجمة غريبة ذات خمس شعب تكتب من أعلى بناية ترصد حركة الذهاب والإياب في المضيق. بيد أن هذه الأيدي الصغيرة تكفي لجعل مياه البوسفور تهيج. فبينما أزيّن حرفاً تولد الدوّامة، وإذا انفعلت يدي يتدفّق الزبَد على الأرصفة ويتراجع كثيفاً. أتسلّى أحياناً بتخريب هذا الانسياب الطبيعي فأجعل مراكب القايق تترنّح وهي ترمي شباك الصيد في عمق المياه أو أدفع القوارب لتُبحر بعكس التيار في الصباح الباكر. لكن يدي تعجز أمام البواخر التي تمخر عباب المضيق في صمت متوعّد، فتنحرف على الورق كي تجد البواخر ممراً لها بين الزوارق الخفيفة. عندما أنفخ على الحبر كي ينشف أطرد ضباب الصباح الكثيف الذي يسدّ المنافذ في وجه المبحرين.

أشدّ على ريشة قلمي الحديدية وأرخي وفق مزاجي، يدي وحدها تقرر مصير النهار.

تعرف خاتم أن أدنى إزعاج قد يؤدي الى كارثة. تنتظر استيقاظي

كي تقدّم الطعام.

أعطي دروساً مرتين في الأسبوع في الجامعة. بعد اجتياز البوسفور أهيم أحياناً في أحياء المدينة التجارية. عدد طلابي قليل لكنهم يصغون باهتمام. الخطّ لا يجتذب الكثير من الطلاب الذين يفضّلون التوجّه نحو مواد أكثر معاصرة: الفن الحديث، الهندسة المعمارية، النحت... حاولت أن أوضح لمدير الدروس ارتباط الخطّ بسائر الأشكال الفنيّة وأن مساجد بلدنا تعجّ بالأفاريز المخططة أو بأواني العبادة المرقّمة بالابتهالات الدينية. أجابني بأن هذا الاختصاص يذكّر أكثر من اللزوم بالأمبراطورية العثمانية وأنه غير قادر على الاستمرار في التصدي للعالم المعاصر. منذ السماح بانتشار الصورة ما عاد للخطّ مبرر وجود. فالصورة باتت تهيمن على حياتنا لكن لا بديل عن أناقة الكتابات.

مع ذلك يمكن للخطّ أن يعبّر عن حساسية الزمن الجديد وهو ليس متحجراً في الزمن ويتابع تطوره. سلسلة الخطاطين لامتناهية ويجب أن تستمر الى الأبد. فهم وحدهم القادرون على إرساء الحوار بين الله والبشر.

باريس، 5 آب 1970

أمي العزيزة،

توفيّ والدي قبل أسبوعين في مستشفى غارش. سكتة دماغية أودت به، لم يتعذّب. ووري الثرى في مقبرة مستشفى ريمون بوانكاره دون حضور كاهن ولا أصدقاء. لم أبكِه ولم آسف على غيابه.

أي شخصية غريبة هو! اختصاصي في الكذب وأسرار الياقات، هذا ما قلته في نفسي وأنا أشاهد تابوته ينزل على وتيرة الحبال المتقطعة. حتى الكتابة على شاهد قبره كاذبة:

بيار غاتا

تيرانا 1897 ـ غارش 1970

ولد باسم محمد فخرالدين دجاغاتاي في كنف عائلة ألبانية أرستقراطية، تزوج في بكلربكي تحت اسم محمد غاتاي وتوفي حاملاً اسم البابا الأول. كنا اثنين في جنازته، أنا والسيدة تيسون، خبّازة بولونية اسلتي ذرفت عليه دموعاً حارة. هي التي ألبست جثمانه واختارت له ربطة العنق وأجمل حذاء. رحل مرتدياً بزّة فصّلها له خصيصاً الخيّاط الإيطالي المشهور في ساحة فاندوم... والتي كلّفتني ما لا قدرة لي عليه. فسددت فاتورته مقابل شيك بدون رصيد.

أي إله سيستقبله فوق؟ هو الذي لم يكن له ديانة سوى النساء والمال.

أفرغت شقّته وفتّشت في جواريره. عثرت على وريقات مكتوبة بخطّ يده فيها نوع من الحكم العنيفة والمتهكمة:

الكذب: ما هو بلباس جميل.

الاستقامة: مسألة ثمن.

الولد: قوس قزح في العاصفة.

الحياة: نزهة مخيّبة للجميع.

عثرت على ألبومات من الخرائط الأيروتيكية الملوّنة. النهدين، العانة، الشفتين والسرّة بألوان الباستيل تتضح معالمها. دوائر ومثلثات مرسومة بأقلام غامقة، حمّالات النهدين بمختلف الأذواق. ثم اكتشفت هذه الصورة لخاتم تقف أمام عدسة مصوّر في حيّ يوغلو. انها غاية في الجمال وكانت في العشرين من عمرها على الأرجح. لا شيء يخصّك، لا صورة ولا رسالة، كأنك لم توجدي قط.

هكذا لم يبق منه أثر سوى مجموعة بذلاته التي قصّرتها على قياسي.

سأذهب قريباً الى لبنان لألقي محاضرة. لم أقصد هذا البلد منذ ثلاث عشرة سنة. الوقت يمرّ بسرعة...

أعانقكم بحنان

نور

دسّ نور الرسالة في مغلّف صورة خاتم. أعدتها الى الألبوم من حيث انتُزعت قبل سنوات. أعلنت الخبر لأختي. أشاحت بوجهها

كأنها لم تسمع شيئاً، تطرد محمد من ذكرياتها. عاودت أختي الابتسام، وفاة جلاّدها حررها من شعور المهانة. للأسف أن والدتي ليست بيننا فهي انتظرت هذا الحدث لوقت طويل. من جهتي، يدي تنحرف لساعات على الورق دون أن أكتب شيئاً، فالحركة وحدها تريحني. خططت الكثير بواسطة الريشة الحديدية لكن دون أن أغطّها في الحبر. لم يكن من المفروض بهذه الاعترافات الشفافة أن تترك أي أثر وراءها.

سليم العجوز قرأ كل شيء، فالأموات يُحسنون قراءة الفراغ، لا يفوت عيونهم المنطفئة مقطع لفظي واحد. ثم اختفى.

طرَقْتُ ريشتي الحديد على الورق كي يهطل المطر فوق البوسفور. فانهالت إبر الماء لتوّها على بكلربكي فنمت على وقع هذا الطوفان. لمرة واحدة هناك من يبكي أكثر مني. نمت كالقتيلة. مطر غير متوقع في شهر آب نظّف كل شيء في دربه، قلبي وذاكرتي.

الزخرفة مبرر وجودي. الأرابسك تخطّ رسوماً هندسية أعرف وحدي سرّها. رسوم مجرّدة، الأغصان المجرّدة من خاصياتها النباتية تتحوّل سطوراً أو نقطاً في بعض الأحيان. الله يقود يدي فيتخذ التأليف منطقه الخاص. المحاور متعددة لكن الهندسة تصمم. الأشكال تتجاوب في لعبة الظلّ والنور لتعيد إنتاج العالم المتناهي الصغر وأسرار الخلق.

أغلق عينيّ. التموّجات تغرقني والمتاهات تُعيدني الى السطح. التعرّجات، النفثات والالتفافات تعيدني الى وجودي، الى أفراحي وأتراحي. أستعيد بومضة عين صورة الطريق التي سلكتها، يصعب عليّ الإفلات من هذه الأشكال. الخطاطون ليسوا أحراراً والإفلات من شبكة الأشكال هذه يعني عصيانه سبحانه وتعالى. الى أين تقودني هذه الخطوط؟ تصطدم يدي بطرف الورقة الخارجي، لن أعرف التتمة.

المحترف غارق في العتمة وظلمة الليل تخيّم على الخارج. ضوء القمر يُغرق صفحتي كأنه يدعوني للاستمرار. أغوص في الظلّ وتتداخل الألوان. البقع الذهبية على مسطّح عملي تلتمع بإصرار. وفي وهج هذه الأضواء المتلألئة وقعت عيناي على قارورة سليم العجوز. انها مليئة كالقمر. بعد أن فرغت وبقيت بمثابة ذكرى

لطيفة، ها هي تمتلئ من جديد بعد عشرين عاماً من النسيان.

يرسل اليّ القمر ابتسامة رقيقة، راحتايَ تتجهان نحوه كما يوجه المؤمنون أيديهم نحو حجرة الرسول. أحاول التقاط الكوكب المظلم، التضاريس القمرية تنعكس على صفحتي في كتابات غير مقروءة. أزيّنها بالذهب كي أحفظ أثرها، ترسم يدي دوائر الصخور المساميّة. ذهبُ سليم العجوز أكثر تلألؤاً من الشمس العتيقة. تتحول الكتابات رماداً، أخطط الأثلام بالغبار الناعم، أرسم الأرابسك الى ما لانهاية. صفحتي بوسع قبّة السماء.

لم يبق أثر من تلك الليلة الغريبة. فمي جاف ويداي يقرضهما الرمل. لم أحفظ سوى صرير القلم على الرمل الناعم. تمرين مجدب وما من حبر روى الحفيرات القديمة.

في الصباح الباكر فتحت خاتم النوافذ لكن الغرفة كانت مشبعة برائحة الكبريت. ليس هناك ما يدلّ على مرور القمر: لا تأليف، لا حبر مذهّب ولا حتى حبة رمل.

القارورة التي امتلأت في العشية كانت فارغة، ضحية الجَزْر. ستعود وتمتلئ عند غياب الشمس التالي.

انتظار القمر ليلة بعد ليلة يحرمني رغبة النوم. بات النوم مضيعة للوقت. تدرّبت عيناي على سبر سطحه الخفي. لم يعد هناك من أسرار بيننا.

رسائل نور صارت أقصر فأقصر، يبدو عقله منشغلاً بامرأة. الخطاطون لا يخطئون في ذلك أبداً فالخطوط المتقطّعة والحروف المنحنية هي علامات الحبّ. انتظرت شهوراً طويلة قبل أن ينتقل الى الاعتراف. يعيش منذ عام مع امرأة ويرغب في الزواج منها.

لم أجب على رسالته هذه وادّعيت أني لم أستلمها. أخبرت معاناتي لورق النسخ، رسمت البسملة ثم ثقبت الورقة الشفّافة بواسطة إبرة حديدية كي أرسم دائرتها. رأس الإبرة يجرح الورقة ويخترق قلبي. أخلط بين اللذة والعذاب. مرّ وقت قبل أن أدرك أن الإبرة لم تكن تثقب الورقة بل جلد ساعدي. والغريب أن الدم احترم تدويرة ذراعي. ورق النسخ الذي تحوّل وعاء لهذا الخيط من الدم كان يمتصّ كل نقطة. إلى أن توقفت، أنقذني الألم عندما صار التشويه بادياً.

أجبتُ نور. تمنيت له سنوات طويلة من السعادة وسلالة طويلة من الأولاد. نديم وخاتم هنّآه بدورهما.

أدركتُ في ذلك اليوم أن الخطّ وحده وفيّ لي. عندها رحتُ أمارس تمارين معقدة وتجارب قصاصات ملصقة وأكريليك. كانت ريَشي العريضة والسميكة تخلّف وراءها أثلاماً مستقيمة. كنت أستخدم أصابعي كسكين والخشب حلّ محلّ الورق. انتهت الكتابات الدقيقة والماهرة، صارت حروفي متينة، متعددة. خطوطي تتكسّر، تتحطّم، تتقوّس وفق مزاجي. أتخلى عن الكتابة، أرشّ السطر وأملأ الفراغ بالمربعات. كسرت جميع المحرّمات في هذا العلم وتحدّيت القواعد الصارمة.

كنا عديدين نرغب في تحديث فن الخطّ لكن العاملين الدينيين في الكتابة كانوا يخشون غضبه سبحانه وتعالى. أقلية نحن الذين تجرّأنا على العصيان. لم يربكنا احتمال «الانتقام الإلهي».

لم أكن أخاف من شيء، استمريت بالإساءة اليه كل يوم أكثر، بإغراق مدائحه في الغراء وتلبيسها أوراق الصحف. أحول مختلف

الأشياء اليومية عن استخدامها المعهود لأدخلها في الصلاة.

فقدت الإيمان من فرط ما عصيت القواعد. ما عدت أخاف لا الله ولا الموت.

مع مرور السنين بدأت أدواتي ترفض يديّ. صرت عجوزاً عليها، متقدمة في السنّ لا أستحقّها. أرسم السقوف بالفحم، يتحول الفحم غباراً تحت وطأة إبهامي. كل شيء يتفتت عند احتكاكه بأصابعي. هل هذا تحذير؟ كيف يمكن تفسيره؟ حضّرت لي خاتم فنجاناً من القهوة ثم قلبته وراحت تقرأ فيه. كانت رؤية المضطجع في التفل تكفي لرمي الرعب في نفسها. انتزعت الفنجان وغسلته بالماء الصافي ثم هرعت ناحية الرصيف حيث كان تلامذتي بانتظاري في الضفة الأخرى من البوسفور. كنت على وشك الإبحار وقد تسمّرت على العبّارة عندما سمعت أصواتاً طالعة من أحد نوافذ بيتنا. كانت خاتم تشير إليّ بأن أعود. كان الباب مفتوحاً على مصراعيه وأختي تتحدث على الهاتف بصوت يقطّعه البكاء. نظرت الي بأسى.

«توفي نورك يا رقّت صباح اليوم. سكتة قلبية صرعته وهو يلقي محاضرة».

رفضت التصديق، وانتزعت السماعة من بين يديها. صوت مجهول آتٍ من الجهة الأخرى من العالم كرر لي الجملة نفسها. ماذا سيحلّ بابنته ذات الستة أعوام، هذا ما تساءلته في الدوار الكبير الذي انتابني ناسية زوجته، الأرملة في عزّ شبابها.

أردت أن أحجُرَ على نفسي حيّة داخل محترفي. لم أعطِ دروساً في ذلك اليوم ولا في الأيام التالية. جلست على كرسي، مديرة ظهري الى النور، رافضة الاستماع لنداءات خاتم التي كانت ترجوني أن

أفتح الباب. الخريف في الخارج. أوراق الأشجار الأرزية تتساقط محدثة صوتاً جافاً، الأوراق التي تغطّي كتابتي ستلتحق بها وتتفتت عند احتكاكها بالأرض. ما فائدتي من هذه الكتابات التي لن تعيد اليّ ابني؟ ما نفعي من إله يستخدم يدي ليكتب نفَسَه؟ في كل حال، أصابعي تحترق عند احتكاكها بأدواتي. تصلّبت فجأة وماتت مع ابني، لم يبق سوى دفنها.

بعد أن أنهكتها المناداة، خلعت أختي الباب. نفَسُها يلفح رقبتي، أمسكت بيدي ودسّت القلم بين أصابعي وقادتها على الورقة.

أمرتني بالقول: «اكتبي يا رقّت، وحدها الكتابة تنقذك».

بدأ ارتجاف يدي للمرة الأولى في مواجهة طلابي الذين لم يلاحظوا ذلك. كان كل شيء يفلت من أصابعي. الوريقة تنزلق، القلم يرتجّ. وحده صوتي بقي حازماً. منى الفخورة لأنه تمّ اختيارها بين تلامذتي العشرين كانت توضح كلماتي وتتبع تعليماتي بالحرف. كنت عاجزة عن تقصير الحلقات وتطويل الأذيال أو إصلاح النسب. أعاني من وجود الحركات في الأماكن الخاطئة. يدي تتمسك بالطاولة فلا أعود أفلتها. كنت أبتدع الأعذار كي لا أشاهد أعمالهم. الحروف الناقصة والقصيرة تعذّبني. رتّبت لوحاتي ونماذجي، الشهود الصامتين على هذه الارتجاجات القصيرة ومن ثم المتمادية. تمسيد يدي لم يبدد ألمي.

قررت تعليم تلامذتي بَريَ القلم. زال ارتجافي عند احتكاك يدي بالقصب، داعبت الضمّة بيد وشددت على السكين باليد الأخرى. أثبّت بإبهامي الشطبات الجانبية المقعّرة لكن الخزق جرح سبابتي فسال الدم على الضمّة. ارتجاف أخير ضرب يدي اليمنى، المذنبة الحقيقية.

صنعت لي منى ضمادة ونظّفت القصبة بالماء الصافي. غطّى الدم القلم بلون غريب.

كانوا عشرين يتفحّصونني، يراقبون حركاتي. احتفظ السكين طويلاً بنقطة الدم الأولى هذه التي جفّت على الشفرة الحديدية

واسودّ لونها مع الوقت.

غادرت القاعة عند انتهاء الدرس ويدي تشدّ بقوة على مقبض حقيبة يدي. أغلقت مني الباب وراءها بعد أن أطفأت النور.

كنت واقفة على سطح المركب الذي ينقلنا بين الضفتين وعيناي شاخصتان إلى بكلربكي. كانت ملامح قريتي تهتز كلما اقتربت منها. أصابني هذا الشعور بالاضطراب وصرت أتعجّل الوصول الى بيتي لأنام وأنسى.

كانت أحلامي تلك الليلة تفيض بالأرابسك. كتابات يصعب تمييزها في متاهة تختلط فيها الكلمات بالأصوات. حسمي الخفيف خطفته إحدى الفتحات فاستسلمت وغصت في فضاء عذب سيء ملساء كورق الرقّ، محيطٌ أكمد كالحبر وأشجار مشذّبة كالأقلام إنها أدوات الخطّ الإلهية. ارتجاف يدي نفسه أيقظني من سباتي ثم في الأمس. ذكّرتني بذعري أمام اختلاجات صغيري نديم. الأمر معروف، ارتجاف يد الخطاط إعلان عن موت قريب.

هدّأ بياض الجدران من روعي. أشعة الشمس الأولى ترشح من خلال زجاج نافذتي المغشّى بالبخار، بعضها يثقب الزجاج وبعضها الآخر يردّه البخار. بالرغم مما أصاب نظري من ضعف في الأونة الأخيرة، تمكنت دون صعوبة من قراءة السطور التالية.

(ولكن يؤخّرهم الى أجلٍ مسمّى

فإذا جاء أجلهم

فإن الله كان

بعباده بصيرا) *

* السورة 35، الآية 45.

الكتابة تمّحي وأنا أقرأها. عبثاً نفخت على الزجاج لأغطّيه بنفَسي. كتابة لا أدري من أين أتت، هل هي من بنات أفكاري؟ الزجاج، كأنه مرآة، عكس قرآن سليم المفتوح على السورة نفسها. التقى الله وسليم في نهاية المطاف، ربما لم يكونا على الدوام سوى شخص واحد أحد.

متّ اختناقاً بالرغم من محاولات نديم الذي حوّل نرجيلة جدّي الى أنبوب أوكسيجين ليتفادى نقلي الى المستشفى.

يموت الخطاطون عندما لا يعودون قادرين على خدمة الله.

عُثر بأعجوبة يوم وفاتي على مقلمة سليم العجوز وهي تلمع عبر مياه البوسفور. اصطادها ابني. استعادت مكانها على مكتبي بعد ساعات على مواراتي الثرى.

وهبتُ مجموعتي من الخطوط والأدوات الى وزارة الثقافة في الجمهورية التركية.

شاهد قبري منحوت بفخامة والكتابة بيد محسن تمتدح تقواي ومهارتي في الخطّ. نسي الإشارة الى دقة يدي ومثابرتي الكبيرة على العمل. تهانيّ لا تكفي لتعزيتها فتعود الى النوم وهي تهمهم بكلمات غير مفهومة.

تسقط الريشة من يدي. ميتة كما أنا، ما الفائدة من الاستمرار في وصف العدم، الفراغ والصمت. ما هو مصير أعمالي من بعدي؟

الخاتمة

30 آذار 2000، متحف اللوفر، جناح ريشليو، إبنة نور تتسكع في صالات المعرض الخاص بـ«الخطوط العثمانية، مجموعة متحف شكيب سبنجي، جامعة اسطنبول». الكتابات تتشظّى، الخطوط تتقطّع بالأثاث شبه الشفّاف: وجهها ينعكس في الواجهات المسطّحة وفي زجاج الحماية. تمتزج ملامحها بالحبر والورق. صورتها المنعكسة تضايقها، كيف نلمح الله إذا كانت الصلاة تعكس رؤوسنا؟

الخطوط المقوّسة تتسارع، تتباطأ، الحروف لا متناهية. ألوان الحبر المسطّحة أو العميقة. أصوات وابتهالات مفرطة...

الخطاطون يجددون صلواتهم، الأصوات المتراكبة تعبّر همساً. ابنة نور تعجز عن سماعها بوضوح.

قصيدة عثمانية تلفت انتباهها. الكتابة المشبّكة بالذهب في الهوامش الخارجية تبدو لها أليفة. بطاقة المعرض تصف العمل باختصار وتورد اسم الخطاطة: رقّت كونت (1903-1986)، جدّتها.

لم تحفظ من جدّتها سوى علبة من العاج مزيّنة بزخارف نباتية مذهّبة. والدتها كانت تقول لها إنها كانت رسّامة وريشها بزغبرين

أو على الأكثر بثلاثة من أجل تلوين ريش العصافير. لا تملك سوى صورة فوتوغرافية تظهر فيها المرأة العجوز جالسة الى طاولة وتبتسم للعدسة. خلفها لوحتان كتابيتان موضوعتان ضمن إطار ومعلقتان على الجدار إضافةً الى صورة لمعلّمها إسماعيل حقّي التون بارز في وقفة جامدة.

ليس لها من جدّتها سوى علبة لكن زقزقة العصافير الواقفة على الأغصان الصغيرة توقظها ليلاً. إغلاق الغطاء يكفي لإسكاتها.

الخطاطون المذكورة اسماؤهم

أحمد قراحصاري (1470-1556)

أسمى عبرت هانم (مولودة عام 1780)

عبد الله زهدي أفندي (توفي عام 1879)

اسماعيل حقي التون بازر (1873-1946)

نجم الدين أوكياي (1883-1976)

رقت كونت (1903-1986)

محسن ديميرنات (1907-1983)

شكر

تشكر دار النهار الدكتور عبد الرحيم أبو حسين لمساهمته في نقل الأسماء التركية المكتوبة بأحرف لاتينية الى العربية.

كما تشكر السيد حسين ماجد لوضعه خطوط عنوان الكتاب واسم المؤلفة على الغلافين الخارجي والداخلي.

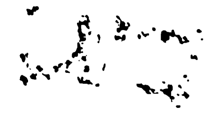
انجز طبع هذا الكتاب
على مطابع هايدلبرغ، بيروت-لبنان

إنطفأتُ في 26 نيسان 1986 عن ثلاثة وثمانين عاماً. كانت اسطنبول تحتفل بعيد الزنبق في اميرجان. صبيحة اليوم نفسه، أبلغ إبني نديم وفاتي إلى الدوائر البلدية في بكلربكي، القرية الساحلية المتربّعة على الضفة الآسيوية للبوسفور. كان رحيلي بلا مشاكل، كما كانت عليه حياتي. لم أَخَف الموت مرة، فهو لا يقسو إلا على من يخشونه. لا صراخ ولا دموع.

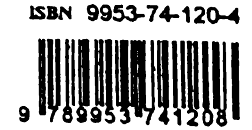
جاء موتي لطيفا لطف طرف القصب عندما تُغطّ أليافه في المحبرة، وجاء أسرع من الحبر يشربه الورق.

حرصت على ان لا أخلّف ورائي أي فوضى، رتّبت حياتي وأدوات الخطّاطة التي كنتها.

ولدت ياسمين غاتا - إبنة الشاعرة والروائية اللبنانية فينوس خوري غاتا - في فرنسا عام 1975 ودرست فيها تاريخ الفن الإسلامي. وهي تروي في هذا الكتاب شغف جدتها العثمانية بالخط العربي وتكريس حياتها له في زمن تخلّت عنه جمهورية أتاتورك.



خط الغلاف: حسين ماجد


ISBN 9953-74-120-4